مفهوم الحزب عند سعاده

أحمد أصفهاني

مفهوم الحزب عند سعاده

ثلاثية متلازمة في
العقيدة والدستور والمناقب

الكتاب: مفهوم الحزب عند سعاده
الكاتب: أحمد أصفهاني

الطبعة الأولى: 2016م

ISBN: 978-9953-417-

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التوزيع: الفرات للنشر والتوزيع

ص. ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان

هاتف: 961 1 750054

فاكس: 961 1 750053

التوزيع عبر الإنترنت: WWW.alfurat.com

الإهداء

إلى رفقائي في مديرية المملكة المتحدة المركزية الذين لولا وعيهم وتكاتفهم ووحدة الروح في صفوفهم لكانت الغربة أقسى من قدرة أي واحد منا على الاحتمال.

المقدمة

بالنسبة إلى المواطنين العاديين المهتمين بقضايا الأمة السورية والعالم العربي، الذين لا يعرفون على وجه الدقة تاريخ نشوء الحزب السوري القومي الاجتماعي والمراحل التي مرّ فيها، فإن هناك ثلاث مؤسسات تحمل اسم الحزب. كل منها يتبع العقيدة ذاتها، ويُعلن الالتزام بفكر مؤسسه وزعيمه أنطون سعاده، ويعمل تحت علم الزوبعة، ويطبق الترتيبات النظامية نفسها. لكن كل واحد منها له رئيس مختلف ومجلس أعلى مختلف ومجلس عمد مختلف... وإلى حد ما ممارسات سياسية مختلفة!

العقيدة القومية الاجتماعية التي أرادها مؤسس النهضة وزعيم الحزب عقيدة موحدة جامعة، نراها اليوم مشرذمة بين ثلاث مؤسسات متباعدة. والحقيقة المرّة هي أن المؤسسات الحزبية المنقسمة على ذاتها عانت في الوقت نفسه تشظيات داخلية معقدة بحيث يمكننا القول إن العقود الأربعة الماضية شهدت صراعات مريرة بين القوميين الاجتماعيين أنفسهم لم تقتصر على التأويلات الفكرية والاجتهادات السياسية، بل وصلت في أحيان كثيرة إلى تصفيات جسدية حصدت عشرات الرفقاء من جميع الأطراف.

إن مظاهر هذا التشرذم ليست جديدة على الحزب

السوري القومي الاجتماعي، كما أنها ليست وليدة الصراعات السياسية والمطامح الشخصية فقط، بل هي تعود في قسم كبير منها إلى خلل في فهم طبيعة الحزب الذي أراده مؤسسه أن يكون حركة الشعب العامة، وأن تكون غايته الأساسية بعث نهضة قومية اجتماعية شاملة. وهذا الخلل ظل يتسلل إلى الإدارات العليا في الحزب حتى في حياة زعيمه، سواء خلال فترة وجوده في الوطن (1932 ـ 1938) أو أثناء مغتربه القسري في أميركا اللاتينية (1938 ـ 1947).

في خطاب الأول من آذار سنة 1938، شدد سعاده على أهمية معرفة ظروف وعوامل نشوء الحزب. ولكنه اكتشف في أواسط الأربعينات أثناء إقامته في الأرجنتين وجود إهمال متعمد من قبل القيادة الحزبية في الوطن من حيث تدريس تاريخ الحزب. واعتبر أن هذا الإهمال يؤدي إلى "**استنتاجات واعتقادات مخالفة للحقيقة**"، داعياً إلى "**وضع حد لها قبل أن يتسع انتشارها وتكوّن مشكلة نفسية خطرة ومشكلة سياسية داخلية معقدة**". واعتبر أن ذلك الخلل ناشئ "**عن عدم العناية بدرس نشوء الحزب السوري القومي الاجتماعي والكيفية التي نشأ فيها والظروف المحيطة بتلك النشأة. والظاهر أن مؤسسات الحزب الثقافية والإذاعية والسياسية لم تعن العناية اللازمة بهذه الناحية الهامة من الثقافة الحزبية والإذاعية والسياسية، أو لم تسمح لها الظروف بتوجيه العناية لها**".

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المفكرين القوميين الاجتماعيين أدركوا دائماً أن واقع التشرذم الحزبي هو نقيض الدعوة القومية الجامعة، وهو نتاج الجهل بطبيعة الحزب

ومفهوم التأسيس. لذلك نشأت في أوقات عدة مجموعة من المساعي الهادفة إلى إزالة الانقسامات الداخلية وتحقيق حلم القوميين بالوحدة. حدث هذا بعد انشقاق سنة 1974، ثم تكرر الأمر في أعقاب الانشقاق الدموي سنة 1987. وعلى الرغم من النجاح الجزئي لتلك المساعي، إلا أن عوامل التباعد ظلت تنخر في الجسم الحزبي سنة بعد أخرى يغذيها غياب الدراسة المتأنية للقواعد الراسخة التي أقام عليها سعاده بنيان المؤسسة الحزبية... إلى أن بلغنا وضعنا الحزبي الراهن.

في ظل الإنقسامات الحزبية، وفي إطار جهل قسم من الأجيال الجديدة في الحزب لتاريخ حزبهم، كانت الدعوة إلى وحدة الصف شعاراً قومياً عاماً. إن أية قيادة حزبية، مهما تمسكت بفئويتها وسلطويتها، لا يمكن أن تحظى بالشرعية القومية الاجتماعية الفعلية إلا إذا حملت راية إزالة عوامل التقسيم وإعادة اللحمة الفكرية والمناقبية بين القوميين. وفي الوقت نفسه التركيز على دراسة تاريخ الحزب، خصوصاً مرحلة التأسيس. (القيادات الرافضة والمخالفة ينبذها الصف الحزبي، طال الزمن عليها أم قصر!) وهذا بالضبط ما يميّز الحزب السوري القومي الاجتماعي عن سواه من الأحزاب الإيديولوجية في العالم العربي.

لكن كيف يتمكن القوميون، في كل المؤسسات، من تجاوز حالات الإنقسام المتكررة؟ وكيف يستمرون بالسعي إلى الوحدة في مجاليها المتكاملين: وحدة الصف الحزبي، ووحدة الروح في المجتمع القومي؟

هذا التساؤل دفعني إلى دراسة تجارب سعاده الحزبية

والسياسية قبل تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي في مطلع ثلاثينات القرن الماضي. إذ لا شك في أن عناصر الفشل في مساعيه الوطنية في البرازيل بلورت لديه منظومة من المفاهيم كانت عوناً مهماً له في المراحل اللاحقة. فالسنوات العشر التي قضاها في المغترب البرازيلي شكلت الخلفية الثقافية والسياسية والاجتماعية لتفكيره الوطني والقومي، قبل أن يتوجه إلى الوطن حاملاً بذور مشروع نهضوي متكامل. ونحن نرصد بين 1930 و1938 (وهي الفترة التي اخترناها إطاراً زمنياً محدداً لدراستنا هذه)، نمو المفهوم الحزبي في تفكير سعاده وحرصه الشديد على وضع القواعد العقائدية والدستورية والمناقبية للحزب. ونكتشف، كما اكتشف سعاده نفسه بالاختبار والتجربة، أن أي خلل بسيط في الثالوث المتكامل: العقيدة والدستور والممارسة المناقبية سيؤدي ـ حكماً ـ إلى انحراف في العمل الحزبي سواء في الفكر أو في النظام أو في الممارسة.

أدرك سعاده باكراً صعوبة العمل القومي النهضوي في وسط سوري بالكاد خرج من قرون التخلف والانحطاط وميعان الشخصية القومية. (والمؤسف أن أوضاعنا القومية الراهنة لم تتبدل كثيراً، إن لم نقل إنها باتت أسوأ!) لذلك كان من الطبيعي أن يُحدد لحركته الجديدة قواعد صارمة تكفل، حتى لو غيّبتْ الظروف الطارئة مؤسس الحزب وزعيمه، استمرار الفعل النهضوي ليتحول مع الزمن إلى حركة الشعب العامة التي ستكون وحدها الضمانة الأكيدة لانتشار العقيدة وانتصارها الناجز. وهو أراد تحصين هذه القواعد بالأخلاق التي هي "**في صميم كل نظام يمكن أن**

يكتب له أن يبقى". فالإنسان الجديد العامل في صفوف النهضة هو الإنسان المناقبي في الدرجة الأولى. وبناء هذا الإنسان يشكل أبرز مهام الحزب الأولية، فإن فشل فيها يكون قد فقد مبرر وجوده. ولن تكون هناك قيمة لأية مؤسسة حزبية إذا لم تكن غايتها الأولى والمطلقة بعث نهضة قومية اجتماعية تتطلع إلى مثل عليا في الحياة. ولعل الأزمات المتراكمة في الحزب، منذ استشهاد زعيمه، تعكس ضياع بوصلة الرؤى النهضوية في خضم ممارسات انحرفت كثيراً أو قليلاً عن ثالوث العقيدة والدستور والمناقب.

هذه الدراسة موجهة أساساً إلى الذين اعتنقوا الفكر القومي الاجتماعي، سواء داخل المؤسسات الثلاث أو خارجها. وهي تعتمد المنهج التأريخي التحليلي نظراً إلى ما لاحظناه من ضعف في فهم تاريخ الحزب في حياة مؤسسه أو بعد غيابه ."**وهذه الحقيقة تدل على أنه لم تكن هناك عناية بتدريس تاريخ الحزب ـ تاريخ نشأته وسيرته الأولى ـ وكيف تغلب على الصعوبات، وما هي القضايا الأولى التي جابهها وكيف عالجها، وكيف أنشأ قضية عظيمة وجعلها تنتشر وتمتد وتسيطر على الرغم من كل الصعوبات والعراقيل التي اعترضتها**". (المحاضرة الأولى)

إنها محاولة تريد أن تستعيد المفاهيم التي نمت في ذهن سعاده وهو يعمل من أجل أن لا يكون القبر هو المصير المحتوم للأمة السورية.

أحمد أصفهاني

لندن، تشرين الثاني 2015

الفصل الأول
الوعي الوطني المبكر

"أنا أموت أما حزبي فباقٍ".

تُنسب هذه العبارة إلى أنطون سعاده مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه، قالها بعد صدور حكم الإعدام عليه يوم السابع من تموز سنة 1949 وتنفيذه رمياً بالرصاص في اليوم التالي، الثامن من تموز على شاطيء الرملة البيضاء في بيروت.

ولهذه العبارة مضامين كثيرة بعيدة المدى. على المستوى الذاتي تقول إن الأشخاص يأتون ويذهبون أما المؤسسات فباقية، وإن سعاده ترك إلى جانب العقيدة القومية الاجتماعية حزباً سيظل يناضل من أجل تحقيق غاية الحزب. أما على المستوى الموضوعي، فإن المؤسسات التي يتكون منها الحزب، وكذلك الأعضاء المنتمين إليه، مؤتمنون على تحقيق إنتصار الحزب من حيث هو نهضة وحركة تعملان لعز الأمة السورية ورفعتها.

كان من الطبيعي أن يسجل سعاده تلك الكلمات أمام التاريخ، فهو يعتبر "**أن إنشاء المؤسسات ووضع التشريع هو**

أعظم أعمالي بعد تأسيس القضية القومية، لأن المؤسسات هي التي تحفظ وحدة الاتجاه ووحدة العمل، وهي الضامن الوحيد لاستمرار السياسة والاستفادة من الإختبارات". (خطاب الأول من آذار سنة 1938)[1]. والمقصود بذلك أن المؤسسات وُجدت لخدمة "**وحدة الاتجاه ووحدة العمل**"، ولن يكون لها معنى بمعزل عن هذه الغاية.

والمؤسسات التي يتحدث عنها سعاده هنا جاء القسم الأكبر منها بعد تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي سنة 1932، إذ أنه يقول في الخطاب ذاته: "**وبعد زوال هذه المشاكل الملحة تمكنتُ من العودة إلى الاهتمام بأهم عمل أساسي بعد تأسيس القضية القومية، ألا وهو إيجاد المؤسسات الصالحة لحمل مبادئ الحياة الجديدة وحفظ مطاليبها العليا وخططها الأساسية، فأعدت المؤسسات التي أنشأتها قبل انكشاف أمر الحزب وزدت عليها مؤسسات لجان المديريات الاستشارية ومجالس المنفذيات والمكتب السياسي وشُعبه السياسية**".[2].

يستوقفنا في هذه العبارة نقطتان مهمتان جداً للبحث الذي ننوي القيام به: الأولى أن سعاده أراد من إنشاء الحزب والمؤسسات أن تكون صالحة "**لحمل مبادئ الحياة الجديدة وحفظ مطاليبها وخططها الأساسية**"، وبالتالي فإن شرعية وجود الحزب والمؤسسات مرتبطة جدلياً بمبادئ الحياة الجديدة. والنقطة الثانية أن سعاده كان ما يزال في عملية تأسيس مستمرة حتى بعد مرور سنوات على التأسيس الرسمي للحزب. وهذا ما تعززه كلمة "وزدت" الواردة في الفقرة

أعلاه، الأمر الذي يستدعي دراسة ما إذا كانت هذه العملية التأسيسية ظلت مستمرة في المراحل اللاحقة.

إن عبارة "**أنا أموت أما حزبي فباقٍ**" يجب أن لا تؤخذ حرفياً على أن الحزب الذي ورث سعاده بعد استشهاده هو الصورة الناجزة والكاملة للمؤسسات التي أراد إنشاءها بين 1932 و1949. لم يقصد أن يقول: "اليوم أتممت عليكم عقيدتي ورضيت لكم الحزب السوري القومي الاجتماعي مؤسسة أبدية"! فهذا موقف ماورائي يخالف القاعدة التي يقوم عليها النهج القومي الاجتماعي وهي أن العقل هو الشرع الأعلى. المعنى الحقيقي لكلام سعاده أنه ختم عطاءه القومي بإعادة وديعة الدم إلى الأمة، تاركاً للقوميين الاجتماعيين مبادئ هي قواعد لانطلاق الفكر وليست قيوداً جامدة خارج إطار الزمان والمكان.

إرتباط شخصية سعاده بالحزب السوري القومي الاجتماعي يجعل من الصعب الفصل بينهما في المنظور الشعبي العام، حتى وإن كان تاريخ الحزب منذ سنة 1949 ولغاية اليوم رسم لنفسه مساراً مستقلاً عن مؤسسه. وقد يعتبر كثيرون، خصوصاً في الحزب نفسه، أن طرح هذا الموضوع على طاولة النقاش يُعد من الفذلكات الفكرية المحرمة التي لن تؤدي إلى أية نتيجة مفيدة. وظاهر هذا الكلام مقبول نوعاً ما، طالما أن الرجل هو منشيء مبادئ العقيدة القومية الاجتماعية، ومؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، وزعيمه مدى حياته.

ومع تقديرنا لمشروعية مثل هذه الاعتراضات

والتحفظات، إلا أننا نرى ضرورة تطبيق المقاييس التي وضعها سعاده على الحزب والمؤسسات التي أنشأها، والتي شهدت أثناء غيابه القسري في المغترب وبعد استشهاده سلسلة من التعديلات والتغييرات على مدى أكثر من ستين سنة. ويمكننا تكثيف كل تلك المقاييس في النقطتين اللتين أشرنا إليهما أعلاه، ونعيد طرحهما بصيغة التساؤل: هل أن الحزب والمؤسسات الحزبية أثناء غياب سعاده وبعد استشهاده كانت (وما تزال) "**صالحة لحمل مبادئ الحياة الجديدة وحفظ مطاليبها العليا وخططها الأساسية**"؟ وهل أن عملية التأسيس المستمرة تواصلت بعد استشهاد سعاده بحيث جاءت التعديلات متناغمة مع فلسفة التأسيس التي هي جزء عضوي من فلسفة العقيدة القومية الاجتماعية؟

قبل المبادرة إلى محاولة الإجابة على هذين التساؤلين، من المفيد العودة إلى تجارب سعاده الحزبية في المغترب البرازيلي (1920 – 1930)، وهي المرحلة التي سبقت رجوعه إلى الوطن للإنخراط في العمل القومي العام. فالخبرة التي اكتسبها هناك على المستوى الشخصي، ومعايشته لوالده الدكتور خليل سعاده صاحب التجربة السياسية والفكرية الطويلة في الوطن وفي المغتربات، ومتابعته لنشاطات الجاليات السورية في الوطن وفي عبر الحدود بعد الحرب العالمية الأولى، واطلاعه الدقيق على مجريات السياسات الخارجية الدولية... كل ذلك شكل خلفية وعيه القومي السياسي العملي، ولعب دوراً حيوياً في خطواته التنفيذية سواء في البرازيل أو في الوطن عندما اتخذ أخيراً قرار الانتقال إلى الطور العملي من نشاطه القومي.

لا نكون مخطئين إذا قلنا إن وعي سعاده النظري والعملي أخذ يتبلور بعد استقراره في البرازيل مطلع العام 1921. كان يومها في السابعة عشرة من العمر، حاملاً في وجدانه المرهف مرارة الحرب العالمية الأولى وويلاتها في جبل لبنان. وقد وصف تلك الفترة في رسالته إلى المحامي حميد فرنجية بتاريخ 15 كانون الأول 1935 قائلاً: "**كنت حدثاً عندما نشبت الحرب الكبرى سنة 1914، ولكني كنت قد بدأت أشعر وأدرك. وكان أول ما تبادر إلى ذهني، وقد شاهدت ما شاهدت وشعرت بما شعرت وذقت ما ذقت مما مُني به شعبي، هذا السؤال: ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟**"[3]

هناك اختلاف بين جبران جريج والدكتور سليم مجاعص في حديثهما عن حياة سعاده بين 1909 و1913. ففي حين يقول جريج إن سعاده الفتى لم يبق في مصر سوى مدة قصيرة عاد بعدها إلى الوطن في أعقاب وفاة والدته[4]، يؤكد مجاعص أن سعاده أمضى فترة قد تصل إلى أربع سنوات في القاهرة، وأنه التحق بإحدى المدارس السورية هناك حيث اتقن اللغة الفرنسية[5]. ونحن نميل إلى الرأي الثاني الذي يعتمد على بعض المصادر المعاصرة، علماً بأن سعاده لم يترك إشارات واضحة إلى تلك السنوات.

وبغض النظر عن هذا التفصيل غير الأساسي، فنحن لا نعتقد بأن الفتى الذي لم يكن قد بلغ الخامسة من العمر عندما وصل القاهرة وبالكاد تجاوز الثامنة عندما غادرها، كان يمكن أن يتعرض لتأثيرات سياسية وحزبية عميقة في تلك

السنوات المبكرة. ومع تقديرنا لصفات الذكاء الحاد والتميز الفكري التي تمتع بها سعاده فتى وشاباً ورجلاً، إلا أن وعيه الوطني كان يجب أن ينتظر فاجعة الحرب الكبرى حتى يصبح أكثر تركيزاً، فيبدأ البحث العملي عن جواب لسؤاله السالف الذكر حول "**حل للمعضلة السياسية المزمنة التي تدفع شعبي من ضيق إلى ضيق فلا تنقذه من دب إلا لتوقعه في جب**". (رسالة إلى حميد فرنجية).

وقد أظهرت الوثائق التي نشرها مجاعص[6] أن الدكتور خليل سعاده شارك في تأسيس "الحزب العثماني الاجتماعي" في القاهرة أواخر سنة 1909، وتولى منصب السكرتير العام في حين أنتخب الدكتور شبلي شميل رئيساً عاماً. لكن هذا الحزب لم يحقق إنجازات تذكر، ومن الطبيعي أن لا يترك أي تأثير على سعاده إبن السنوات الخمس.

عاد سعاده إلى الوطن أواخر سنة 1913 بعد وفاة والدته، بينما توجه والده نحو الأرجنتين مغادراً القاهرة لأسباب سياسية. كانت سورية ترزح تحت نير الظلم العثماني خصوصاً بعد نشوب الحرب وإعلان جمال باشا الأحكام العرفية في البلاد سنة 1915. وهذا يعني قمع أي عمل سياسي أو حزبي يمكن أن يساعد في بلورة تفكير سعاده في إيجاد "**حل للمعضلة السياسية المزمنة**" التي يعاني منها الشعب السوري. وربما تسربت إلى جبل لبنان جرائد ومطبوعات تحمل أخبار الجمعيات والأحزاب السورية العاملة ضد الهيمنة التركية، لكننا نشك في أن تكون قد ساهمت في إثارة اهتمام سعاده بقدر ما أرقته فظائع الحرب التي عايشها بكل مآسيها. ويجب

أن لا نحمّل ما ذكره نواف حردان[7] نقلاً عن أحد معارف سعاده أكثر مما تحتمل سنوات الطفولة عندما يقول إن سعاده كان يجمع زملاء الدراسة سراً ويقرأ عليهم مقالات "المجلة" التي أصدرها والده في الأرجنتين سنة 1915.

وبالعودة إلى آخر سنوات الوجود التركي في بلادنا، نرى أن وصول حزب الاتحاد والترقي إلى سدة السلطة في استنبول سنة 1908 شكل مفصلاً هاماً في اتجاهات الحياة السياسية والحزبية في الولايات الخاضعة للسلطنة العثمانية، ومنها المناطق السورية. فبعد اندلاع التظاهرات والتحركات الشعبية في العديد من المدن العثمانية، إضطر السلطان عبد الحميد الثاني إلى إعلان الدستور وإحياء البرلمان في 24 تموز 1908، ما مهد الطريق أمام حزب الاتحاد والترقي لتحقيق انقلابه الشامل. فاستكمل مخططاته بخلع السلطان عبد الحميد في 26 نيسان 1909 وتنصيب أخيه محمد رشاد سلطاناً مكانه.

كان إعلان الدستور من جهة، وسياسة التتريك التي مارسها قادة حزب الاتحاد والترقي من جهة أخرى، دافعين أساسيين لتكثيف الحراك السياسي والحزبي في سورية بين 1908 و1914. غير أن انخراط تركيا في الحرب العالمية الأولى، وما رافق ذلك من تطبيق دموي للأحكام العرفية في سورية، وضعا حداً لأية فعاليات سياسية وحزبية علنية وواسعة. يصف الدكتور خليل سعاده تلك المرحلة في مقال نشره في "الجريدة" بتاريخ 12 آب 1920 قائلاً: "لم تتألف خلال الحرب جمعيات سورية ظاهرة ترمي إلى استقلال

البلاد (...) لأن ذلك لم يكن ممكناً إذ أن الحكومة كانت تشنق الذين سعوا أثناء السلم وراء استقلال سورية الإداري، فكيف بها لو قبضت أثناء الحرب على سوريين يرمون إلى استقلال تام وهو من الوجهة العثمانية جريمة تستحق العقاب بالموت".[8] وهكذا كان على الناشطين السوريين العاملين من أجل التخلص من نير الاستبداد العثماني إنتظار لحظة هزيمة ألمانيا وحليفتها تركيا سنة 1918 كي يعودوا مجدداً إلى ساحة النضال الحزبي.

ونستطيع تقسيم الربع الأول من القرن العشرين في سورية إلى ثلاث مراحل، لكل واحدة منها ظروف عملها السياسي والحزبي: الأولى بين 1908 و1914، والثانية بين 1914 و1918، والثالثة ما بعد سنة 1919 عندما كرّست السلطتان الاستعماريتان الفرنسية والبريطانية هيمنتهما على الوطن السوري على أساس تقسيمات "سايكس - بيكو" السيئة الذكر.

لكن هذا لا يعني عدم وجود أحزاب أو جمعيات أو لجان وطنية عاملة في الحقل السياسي قبل سنة 1908. ففي سنة 1875 تأسست جمعية سورية سرية في بيروت على يد نخبة من مثقفي البلاد تلقوا علومهم في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية حالياً)... من أبرز النقاط في برنامجها "منح سورية الاستقلال متحدة مع لبنان"[9]. غير أنها لم تستمر سوى ست سنوات إذ أوقفت نشاطها خوفاً من طغيان السلطان عبد الحميد، وأحرقت جميع سجلاتها في إحدى ليالي تشرين الثاني سنة 1881.[10]

وكان يجب الانتظار حتى الثالث من آب سنة 1909 عندما أصدرت حكومة الأستانة قانوناً أجاز لرعايا السلطنة العثمانية تأليف الجمعيات والنوادي وفق شروط قاسية ملزمة، منها حظر السعي إلى تغيير شكل الحكومة، أو أن تكون على أساس قومي أو جنسي، وأن لا تبث الفرقة بين المجموعات العثمانية[11]. وعلى رغم قانون الجمعيات هذا، فإن تقلبات السياسة العثمانية وتدخلات القوى الدولية في شؤون "الرجل المريض" لم تترك مجالاً واسعاً لنشوء حياة حزبية فعلية.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الغالبية العظمى من تلك الأحزاب والجمعيات كانت تنشأ كردة فعل على التطورات المتسارعة في السلطنة. بعضها سعى إلى تحقيق أغراض آنية ذات طابع سياسي إداري مثل الدعوة إلى "اللامركزية في المقاطعات العربية" من دون التخلي عن الهوية العثمانية. وبعضها الآخر أراد مواجهة التتريك وسياسات التهميش التي مارسها حزب الاتحاد والترقي. وبعضها الأخير قام للمطالبة بحقوق الجماعات الدينية أو المذهبية أو العرقية بعد هزيمة تركيا واحتلال القوات البريطانية والفرنسية لمعظم المقاطعات السورية. إذ أن هذه الهيئات "لم تكن (...) على مدى عقد ونيف، أحزاباً سياسية وفق المفهوم المعروف في البلدان المتطورة (...) إنما كانت تجمعات ظرفية، دفعت إلى نشوئها عوامل خارجية ناجمة عن أحداث إقليمية كوصول حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم في الإمبراطورية العثمانية، ودولية كنشوب الحرب العالمية الأولى وما رافقها من اتفاقات ومبادئ".[12]

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى لتقضي على أي مجال للعمل الحزبي الوطني. وخنقت الإجراءات القمعية العثمانية في سورية كل أمل بحراك سياسي مستقل. وعندما تم جلاء القوات التركية عن سورية في أيلول سنة 1918، كانت البلاد تعاني كارثة إنسانية شاملة بعد أربع سنوات من الحصار والترهيب والتجويع. إن السنة التي تفصل بين رحيل القوات العثمانية عن بلادنا ومغادرة سعاده وإخوته الصغار الوطن في أواخر سنة 1919 متوجهين إلى المهجر الأميركي، لم يكن فيها متسع من الوقت لنشوء حياة حزبية تأخذ في الاعتبار المصالح العليا للشعب السوري.

لم يكن أمام سعاده أي نموذج حزبي واضح في الوطن، ولم تكن مطالعاته قد إتسعت لتقف على تجارب الأمم الأخرى في المجالات السياسية والحزبية. لذلك فإن الدراسة الواقعية لفكره الحزبي يجب أن تبدأ من العام 1920، عندما وصل مع أخوته الصغار سليم وإدوار وغريس إلى الولايات المتحدة الأميركية، عن طريق مدينة مرسيليا الفرنسية، قاصدين مدينة سبرينغر بولاية نيو مكسيكو حيث يقيم خالهم سليمان نصّار نصير، وعلى أمل أن يلتقي بهم لاحقاً والدهم الدكتور خليل الذي كان قد قرر مغادرة الأرجنتين ليتوقف في البرازيل بطريقه إلى الولايات المتحدة للإنضمام إلى أولاده آرنست وآرثر وتشارلي المقيمين هناك منذ سنوات.

ونحن نعتقد أن سعاده كان قد حسم أمره وعقد العزم على الاهتمام بالقضايا الوطنية قبل مغادرته سورية إلى المغترب الأميركي. والحادثة التي جرت له مع رئيس بلدية

بيروت عمر الداعوق[13] قبل أسابيع من سفره وإخوته تؤكد بداية تبلور وعيه الوطني. ففي منتصف سنة 1919، قصد سعاده مكتب أحد أطباء الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية)، وهو صديق قديم لوالده الدكتور خليل، من أجل تسلم مبلغ مالي كان مودعاً لدى ذاك الطبيب. وأثناء وجود سعاده في قاعة الانتظار، دار حديث بين الحضور حول أية دولة أفضل لحكم سورية بعد انتهاء الحرب. ولما احتدم الجدل واندلع الخلاف بين من يفضل فرنسا أو بريطانيا أو أميركا، إلتفت أحد الحاضرين إلى الفتى الصامت قائلاً: "فلنسأل هذا الشاب عن أفضل الخيارات"... فكان جواب سعاده الهادئ: "أفضل دولة منا نحن"! هذا الموقف يعكس مدى ما كان قد وصل إليه وعيه الوطني الفطري، لكن كان عليه أن ينتظر لسنتين أو ثلاث حتى يتمكن من تكثيف معارفه الاجتماعية والسياسية، وفي الوقت نفسه الانخراط في حياة الجاليات السورية المغتربة.

هوامش الفصل الأول

(1) أنطون سعاده، "الأعمال الكاملة"، الجزء الثالث، صفحة 194.

(2) المرجع السابق، الجزء الثالث، صفحة 193.

(3) المرجع السابق، الجزء الثاني، صفحة 9.

(4) جبران جريج، "أنطون سعاده منذ الولادة حتى التأسيس"، صفحة 20.

(5) سليم مجاعص، "أنطون سعاده: سنو الشباب"، صفحة 90.

(6) المرجع السابق، صفحة 91.

(7) نواف حردان، "سعاده في المهجر ـ الجزء الأول". صفحة 108.

(8) خليل سعاده، "سورية من الحرب والمجاعة إلى مؤتمر الصلح ـ المجلد الأول". صفحة 234.

(9) جورج أديب كرم، "أحزاب اللبنانيين وجمعياتهم في الربع الأول من القرن العشرين". صفحة 24.

(10) المرجع السابق، صفحة 25.

(11) المرجع السابق، صفحة 49.

(12) المرجع السابق، صفحة 184.

(13) هو عمر بن محمد بن أحمد الداعوق (1874 ـ 1949). ذكره مجاعص (صفحة 122) بإسم أحمد في حين أسماه جريج (صفحة 40) عمر. والأرجح أن اسمه مركب من أحمد عمر، وقد عُرف بالإسم الثاني على نطاق واسع.

الفصل الثاني
آفاق جديدة في المهجر الأميركي

يتفق جبران جريج[1] وسليم مجاعص[2] على أن أنطون وأخوته غادروا الوطن في أواخر سنة 1919 أو مطلع سنة 1920 (علماً أن سعاده يقول في رسالته إلى حميد فرنجية "... وكان أن سافرت أوائل سنة 1920...")[3]. وتؤكد سجلات الهجرة الأميركية أنهم وصلوا إلى نيويورك في 28 آذار سنة 1920، مشيرة إلى أن أنطون كان "يُحسن القراءة والكتابة باللغة الإنكليزية"[4]. وفي حين التحق الأخوة الثلاثة بإحدى مدارس سبرينغر، تحول أنطون إلى العمل مفتش تذاكر في محطة سكة حديد المدينة.

لم تطل مدة إقامة الأخوة الأربعة في سبرينغر، إذ أدى حادث عائلي مأسوي[5] إلى مغادرتهم الولايات المتحدة في كانون الأول سنة 1920 متوجهين إلى البرازيل بعد أن اتخذ الدكتور خليل قراره بالبقاء هناك وعدم إكمال رحلته إلى أميركا حسب المخطط السابق. فتكون المدة التي قضاها سعاده في أميركا حوالي التسعة أشهر. "ولكن هذه الزيارة القصيرة للولايات المتحدة سمحت لأنطون، بالإضافة إلى دراساته الواسعة لاحقاً في علوم الاجتماع والنظم السياسية،

تكوين نظرة حول الحياة السياسية والاجتماعية في أميركا سوف نجد آثارها في كتاباته".[6]

الأشهر التسعة التي قضاها سعاده في الولايات المتحدة أتاحت له الاحتكاك الأولي بالنظم الحزبية والسياسية والاجتماعية في بيئة مختلفة تماماً عما عهده في سورية أو مصر. ولا شك في أن هذا الشاب ذا الفكر المتقد والذكاء الحاد، والمنفتح على المعرفة، والمشبع بروح الوطنية التي عززتها مأساة السوريين خلال الحرب الكبرى، عكف خلال تلك الفترة على استيعاب كل أبعاد هذه التجربة الجديدة. وتظهر مقالاته اللاحقة في "الجريدة" خلال العام 1924 ليس فقط عمق اطلاعه على الأوضاع السياسية في أميركا والعالم، بل أيضاً درايته بالأنظمة الحزبية فيها. ومن النماذج المتعلقة بالولايات المتحدة المقالات التالية: "سقوط الولايات المتحدة من عالم الإنسانية الأدبي" (1 أيار 1924)، "نظام الحكومات" (1 أيلول 1924)، "كيفية الانتخاب في الولايات المتحدة – قسمان" (1 كانون الأول 1924).

ولدينا مؤشر آخر مهم على متابعة سعاده الدقيقة للأحداث السياسية والاجتماعية الأميركية ذات الصلة بتفكيره القومي. ففي كتاب "نشوء الأمم"[7] يورد تفاصيل حادثة انتخابية جرت في مدينة بيرمنغهام (ولاية آلاباما) تعود إلى ربيع سنة 1920 تظهر رسوخ عقيدة السلالات في الولايات المتحدة، ليس بين البيض والسود فحسب، بل أيضاً ضد السوريين والإغريق ناهيك عن الآسيويين عموماً والصينيين واليابانيين خصوصاً.

في السابع من شباط سنة 1921، إلتأم شمل العائلة في البرازيل: الأخوة الثلاثة الصغار إلى المدرسة، وأنطون إلى العمل مساعداً لأبيه الذي كان قد بدأ بإصدار "الجريدة" في سان باولو. هنا، في هذا المجتمع الجديد والمختلف، إنفتحت آفاق أرحب أمام سعاده المتعطش للمعرفة وللعمل. صحيح أنه كان على دراية بالنشاط السياسي والاجتماعي للجاليات السورية في المغترب الأميركي، وكذلك بالنشاط المماثل في الوطن بُعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى. كما كان له في أبيه نموذج للحراك الفكري والحزبي سواء في الوطن أو في المغترب. لكن الصحيح أيضاً هو عدم تجاهل احتكاك سعاده اليومي، وعلى مدى عشر سنوات، بالحياة البرازيلية على مختلف الأصعدة.

البرازيل التي استقر فيها سعاده كانت ذات نظام ديموقراطي دستوري بالإسم فقط. حق الانتخاب لم يكن متاحاً لجميع السكان، ففي العام 1910 كان عدد الذين يحق لهم التصويت 627 ألفاً من أصل 22 مليوناً هم عدد سكان البلاد آنذاك. وطيلة سنوات العشرينات، لم تتجاوز نسبة الذين يحق لهم التصويت 4.3 في المائة. أما القوة الأساسية المسيطرة فكانت لحكام الولايات الكبرى أمثال سان باولو وميناس غرايس وريو غراندي دو سول. وظل الجيش المؤسسة الأكثر تأثيراً في حياة البلاد، بحيث أن حكام عشر ولايات من أصل عشرين كانوا من الضباط السابقين خلال الربع الأول من القرن الماضي.

وخلال الحرب العالمية الأولى، ظلت البرازيل على

الحياد حتى سنة 1917 عندما أغرقت البحرية الألمانية بعض السفن البرازيلية قبالة الشواطيء الفرنسية، فأعلنت الحكومة البرازيلية الحرب على دول "القوى المركزية" (ألمانيا وحلفائها) في 26 تشرين الأول سنة 1917. ثم أرسلت بعضاً من قواتها البرية للقتال إلى جانب الجيش الفرنسي في أوروبا، ووجهت أسطولاً صغيراً إلى البحر الأبيض المتوسط. وعلى هذا الأساس نالت الحق في المشاركة بمؤتمر فرساي بعد انتهاء الحرب، وهو المؤتمر الذي انتهى بتوقيع "معاهدة فرساي" في 28 حزيران 1919.[8]

أما على المستوى الداخلي، فقد تركت الحرب تأثيرات عميقة جداً تمثلت بوصول ملايين المهاجرين الأوروبيين الذين هربوا من القارة العجوز المثخنة بجراح الحرب وجاءوا يبحثون عن حياة جديدة في المقلب الثاني من الأرض. وهؤلاء حملوا معهم، إلى جانب أمتعتهم وأغراضهم، أفكاراً وأيديولوجيات تشمل الإشتراكية والشيوعية والفوضوية والديموقراطية وغيرها. ففي سنة 1922 تأسس الحزب الشيوعي البرازيلي. وعمل المهاجرون الأوروبيون على تأسيس النقابات والترويج للأفكار القومية. وفي السنة نفسها وقع تمرد فاشل قام به عدد من صغار الضباط للمطالبة بالتحديث والإصلاح الزراعي وإنشاء التعاونيات وتأميم المناجم. ومهدت هذه الأحوال المضطربة، ومعها الركود الأميركي الكبير سنة 1929 الذي وجه ضربة موجعة إلى الاقتصاد البرازيلي، لوقوع إنقلاب قاده غيتوليا فارغاس الذي أقام حكماً ديكتاتورياً في البلاد ابتداء من 3 تشرين الثاني سنة 1930.

لكن الحدث الأهم الذي عايشه سعاده، وترك من دون أدنى شك أثراً كبيراً في تفكيره، هو الاحتفالات الكبرى التي عمت البرازيل سنة 1922 بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لاستقلال البلاد. كان الشعار الأساسي يومها التأكيد على الهوية القومية البرازيلية. وقد أشار سعاده لاحقاً، في سنة 1931، إلى هذا التوجه القومي بقوله: "**في أميركة الجنوبية اليوم تيار من الأفكار الثائرة المشبعة بروح القوميات الحديثة التائقة إلى الظهور بمظهر القوة والاعتماد على النفس والمساواة لأكبر الأمم القوية**".[9] ولا بد أن سعاده راقب بتمعن كيف أن الأعراق والجنسيات المختلفة امتزجت في بوتقة واحدة لتشكل الأمة البرازيلية، ما دفعه إلى مزيد من الدرس والتقصي لتبيان أسباب تشرذم السوريين وفقدانهم الحس القومي السليم! ويظهر ذلك بوضوح في مقاله المشهور "لجنة التمثال تهين شعور العالمين المسيحي والإسلامي" الذي نشر على حلقتين في "الجريدة" (العدد 83 تاريخ 8 تموز 1922، والعدد 84 تاريخ 15 تموز 1922).

ويمكننا تلخيص الإطار العام الذي تطور من خلاله تفكير سعاده في البرازيل بالعوامل الآتية:

أ ـ المجتمع البرازيلي بكل أعراقه ومهاجريه، والذي كان يعيش مرحلة مخاض سياسية واجتماعية واقتصادية أدت سنة 1930 إلى الإنقلاب العسكري.

ب ـ مطالعات سعاده الواسعة وانفتاحه على الثقافات العالمية، واهتمامه بالسياسة الدولية نظراً إلى علاقتها بمصير الوطن السوري الذي كان خاضعاً لقرارات الدول الكبرى

الخارجة منتصرة في الحرب العالمية الأولى.

ج ـ تجارب الدكتور سعاده وعلاقاته ونشاطاته، خصوصاً من خلال جريدة "الجريدة" التي قرر إصدارها في العام 1920.

د ـ الجالية السورية في البرازيل، وإلى حد ما في أميركا الجنوبية، وهي جالية متنوعة الانتماءات والاتجاهات والولاءات، ولها أحزابها وجمعياتها المتعاونة أحياناً والمتخاصمة في معظم الأحيان.

في هذا المجتمع الجديد استقر الدكتور سعاده ليصدر "الجريدة" في سان باولو إبتداء من 5 آب سنة 1920. وكان سبق له أن أصدر "المجلة" بين منتصف 1915 ومنتصف 1919 أثناء إقامته في الأرجنتين لتكون لسان حال نشاطاته السياسية والفكرية. وقد واصل المنحى ذاته في المطبوعة الجديدة التي سرعان ما تحولت إلى عامل مؤثر في أوساط الجاليات السورية في أميركا اللاتينية. وكان من الطبيعي أن يجد الإبن القادم حديثاً من الوطن مكاناً له فيها.

على صفحات "الجريدة" وفي مكاتبها كان التفاعل بين الأب والإبن. جاء الدكتور سعاده إلى البرازيل محملاً بخبرات عميقة وتجارب عنيفة، بينما عكف الإبن على تلمس أفكار جديدة تختلف جذرياً عما عرفه المفكرون النهضويون آنذاك. فكان لقاء بينهما وكان افتراق. ولا شك في أن السنوات الثلاث الأولى على وجود سعاده في البرازيل أتاحت له فرصة كاملة للإطلاع على نشاطات والده الحاضرة والماضية. ومع أن باحثين عدة تناولوا تأثير الدكتور سعاده على ابنه في

النواحي الفكرية والسياسية، فإن دراستنا تركز على الجوانب التنظيمية العملية التي نعتقد أن سعاده افترق عن والده من خلالها.

باشر سعاده عمله في "الجريدة" لتأمين أسباب العيش الكريم في مستقره الجديد. غير أنه لم يكن يرغب في الصحافة كمهنة دائمة، وإنما أرادها منبراً لأفكاره الوطنية والاجتماعية والأدبية، تماماً على غرار والده من قبله. أول ما نُشر له كان في العدد 25، تاريخ 21 نيسان 1921، بعنوان "معركة غوتلاند" ثم "مذكرات ولي عهد ألمانيا"، وهي مترجمة. أما مقاله الخاص الأول فهو "آمال الوطن" (العدد 31، تاريخ 4 حزيران 1921)، وفيه يركز على ثلاث مسائل شكلت الإطار العريض لتفكيره القومي العملي على مدى السنوات اللاحقة:

أولاً، طرح الأسئلة الوجودية حول واقع الأمة السورية ومستقبلها. فبعد أن يشير إلى جرائم الإستعمار الفرنسي في سورية، نراه يطرح الأسئلة التالية: "**ولكن ما يستحق الذكر هو حالة الخمول المستولية على الشعب. فإلى أي متى يظل عليها يا ترى؟ وإلى متى يلبث لسانه منعقداً عن الكلام؟ ولماذا هذا الذهول وهذا الصمت؟ ألم يحن الوقت الذي يجب أن يسترد فيه الشعب إباءه؟**"[10]. صحيح أن رسالته إلى حميد فرنجية سنة 1935 تذكر أسئلة مماثلة خفقت في وجدانه أثناء الحرب العالمية الأولى، لكن هذا المقال يتضمن لأول مرة ما يشابه تلك الأسئلة.

ثانياً، إن أي علاج للواقع السوري يجب أن يكون بقيام

نهضة حقيقية تعيد بناء شخصية الإنسان السوري. فسعاده يرى أنه "**حتى الآن لم نرَ ما يدلنا على أن هنالك نهضة حقيقية نتفاءل بها**".[11] وسنجد هنا بداية التسلسل الفكري المتكامل: أسئلة وجودية هي من نوع تساؤل العارف، الإجابة عليها يجب أن تكون بنشوء "**نهضة حقيقية**"، وللوصول إلى ذلك يجب العمل على إنشاء المؤسسات الكفيلة بتحقيق النهوض. وهذا ما لا يمكن أن يتم إلا ببناء الإنسان الجديد. إن وقوع خلل في هذه السلسلة المترابطة سيؤدي إلى تضعضع العملية النهضوية، وربما إلى سقوطها.

ثالثاً، يأتي دور الخطوات التنفيذية: "**وحتى الآن لم ينشأ سوى بعض أحزاب لخدمة الوطن لم تتجاوز خِدَمها إلقاء الخطب وإرسال البرقيات الاحتجاجية إلى جمعية الأمم، مما لا يجدي نفعاً إذا لم تكن هناك أعمال تنفيذية**"[12]. ويظهر من هذا الكلام أن سعاده، حتى في تلك المرحلة المبكرة من نشاطه الصحافي ـ الفكري، اختزن في وعيه القومي ضرورة العمل المنظم في أوساط المهاجرين السوريين لـ "**أن الشعب السوري في الوطن يقاسي الذل والفقر والإهانة من الأوصياء الاستعماريين، وهو ينتظر معونة اخوانه في المهجر**".[13]

أما من ناحية العوائق التي تعترض مثل ذلك العمل النهضوي، فقد أدرك سعاده أن الانحطاط العام الذي رزحت سورية تحته على مدى القرون الماضية سيجعل مهمة النهوض صعبة للغاية. فهو يقول في مقاله الثاني "الوطنية" ("الجريدة"، العدد 32، تاريخ 11 حزيران 1921): "**الوطنية للسوري إسم لغير مسمى، فهو لا يفقه للوطنية معنى سوى**

الوظائف (...) ولكن عندما يأتي يوم الانتخاب، تراه في مقدمة الوطنيين وأول المجاهدين في سبيل الوطنية الغيورين عليها"[14]. وعلى هذا الأساس، كان على سعاده أن يواجه التحديين الكبيرين: بعث نهضة قومية حقيقية، وتخليص الشخصية السورية من الأنانيات الفردية أو "**الوظائف**" التي وصفها بأنها "**داء لا يريد السوريون أن يشفوا منه**"[15].

صدرت "الجريدة" من 1920 إلى 1923، ثم توقفت لتصدر مكانها "المجلة" لمدة عامين بين 1923 و1925. وخلال تلك السنوات تنوعت مقالات سعاده، غير أن الهاجس الوطني كان العقد الذي ينتظمها جميعاً. ونحن نعتقد أن سنة 1924 تشكل عنده فاتحة التفكير الواضح المؤدي إلى خطوات عملية. وهذا ما سنتبينه في القسم اللاحق عندما نتناول مقال "القضية الوطنية" ("المجلة"، أول شباط 1924) وذلك في سياق نشاط سعاده الحزبي إبتداء من سنة 1925.

هوامش الفصل الثاني

(1) جبران جريج، "أنطون سعاده منذ الولادة حتى التأسيس". صفحة 59.

(2) سليم مجاعص، "أنطون سعاده: سنو الشباب". صفحة 129.

(3) أنطون سعاده، "الأعمال الكاملة"، الجزء الثاني، صفحة 9.

(4) مجاعص، مصدر سابق، صفحة 129.

(5) المرجع السابق، صفحة 132.

(6) المرجع السابق، صفحة 133.

(7) الأعمال الكاملة، الجزء الثالث. صفحة 18.

(8) موسوعة "ويكيبيديا" على شبكة الإنترنت.

(9) أنطون سعاده، "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول، صفحة 298.

(10) المرجع السابق، صفحة 1.

(11) المرجع السابق، صفحة 1.

(12) المرجع السابق، صفحة 1.

(13) المرجع السابق، صفحة 2.

(14) المرجع السابق، صفحة 3.

(15) المرجع السابق، صفحة 4.

الفصل الثالث
الاختبار التنظيمي الأول

تناول عدد كبير من الباحثين المعاصرين موضوع انتشار الجمعيات واللجان والأحزاب بين السوريين في بلاد الاغتراب منذ مطلع القرن العشرين. ولا نريد هنا الإطالة في الحديث عن نشاطات السوريين الوطنية والسياسية في المهجر الأميركي. ونكتفي، كنموذج، بعرض مختصر لأحزاب وجمعيات كانت ناشطة أثناء وجود سعاده في سان باولو. وهي تعكس حال الفوضى الوطنية في أوساط الجالية السورية، والتي وصفها سعاده لاحقاً في خطاب الأول من آذار سنة 1938 بقوله إنه "**لم يكن هناك فكرة واضحة لتأسيس الحياة القومية ومصالح الشعب السوري**".[1].

* جمعية "نهضة البرازيل" تأسست في سان باولو سنة 1913، وتولى أمانة سرها وديع أبو سمرا. وقد استمدت برنامجها من مبادئ "جمعية نهضة نيويورك"، ودعت إلى "استقلال لبنان في حدوده الطبيعية وتوسيع هذه الحدود براً وبحراً لتمكين سكانه من الاكتفاء المعيشي، ووضعه تحت الحماية الفرنسية".[2]

* "الجمعية الوطنية السورية" أنشأها نجيب نسيم طراد في سان باولو عند نشوب الحرب العالمية الأولى، ثم ارتبطت بـ "الجمعية الوطنية السورية" في باريس التي كان يرأسها شكري غانم بالإتفاق مع فرنسا. وفي العام 1917 عُرضت الرئاسة على نعمة يافث، فقبلها.[3]

* "الحزب الوطني السوري" أسسه الدكتور أسعد بشارة في سان باولو سنة 1920. أصدر جريدة "الوطن الحر" سنة 1923، لكنها توقفت بعد أعداد قليلة. وكان لهذا الحزب الذي لم يعمر طويلاً غايتان: "الأولى والقصوى استقلال سورية استقلالاً تاماً بلا قيود ولا تجزؤ بأوسع حدودها الطبيعية التاريخية. الثانية والمستعجلة، إيجاد الرجال ذوي النفوس الكبيرة والأخلاق السامية والمقدرة الكافية لنيل هذا الاستقلال والقيام بإدارة حكومة دولة".[4]

ومن المناسب هنا الإشارة إلى ما أسسه الدكتور خليل سعاده في بوانس أيرس ـ الأرجنتين، نظراً إلى تأثير ذلك على سعاده الشاب في مطلع نشاطاته الوطنية. ففي أواخر سنة 1916 أنشأ "الجامعة السورية" التي نصت المادة الخامسة من ميثاقها على أنه "ممنوع قطعياً البحث في الأديان والسياسة". وقد جاء ذلك رداً على الاشتباكات الطائفية بين المسلمين والمسيحيين السوريين التي هزّت مناطق عدة من العاصمة الأرجنتينية في حزيران سنة 1915.[5] ولا يمكن وصف الجمعية بأنها حزب سياسي، وإنما هي محاولة اجتماعية تهذيبية لنبذ التفرقة وللتقريب بين مكونات الجالية السورية في الأرجنتين. وقد أوضح الدكتور سعاده[6] سبب إقدامه على

هذه الخطوة بقوله: "ليس للجالية في بوانس أيرس جمعية تصلح أن تكون جامعة للسوريين على اختلاف مساقط رؤوسهم، أو رابطة تجمع ما تفرّق من شملهم، وتعتني بما فيه خلاصهم وصلاحهم من الوجهة الأدبية والاجتماعية، وتحامي عن حقوقهم".

وإذا كانت "الجامعة السورية" أدت دورها المحدود في تلك الفترة، فإن "الحزب الديمقراطي الوطني" الذي أسسه الدكتور سعاده سنة 1919 كان أكثر جذرية في حمله للمبادئ التي سعى مؤسسه إلى تحقيقها طيلة حياته. واعتبر هذا الحزب "أول تنظيم سياسي، بالمعنى العصري للكلمة، في أوساط الجالية السورية في أميركا".[7] وقد نصّت مادته الأولى على أنه "يجب أن تكون سورية ولبنان وفلسطين مستقلة استقلالاً مطلقاً بضمان بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة".[8] ويشرح الدكتور سعاده في "المجلة" (عدد 15 شباط 1919) برنامج الحزب بقوله: "عَلِم القراء... الغايتين الأساسيتين اللتين يسعى الحزب الديمقراطي الوطني إلى تحقيقهما وهما استقلال لبنان وسورية وفلسطين بعد إعادة الأول إلى حدوده الجغرافية الطبيعية استقلالاً تاماً مطلقاً تكون معه هذه البلدان مستقلة استقلالاً إدارياً تاماً، وتعود في شؤونها إلى حكومة عامة على حد الولايات المتحدة. والثانية الجري في نظام حكومته على الخطة الديمقراطية العصرية وإزالة الفوارق بين طبقات الشعب وبسط سلطة الشعب على الحكومة وفصل الدين عن السياسة".[9]

وعَقدَ الحزب في بوانس أيرس "المؤتمر الديمقراطي

الوطني" ليتزامن مع انعقاد مؤتمر الصلح في فرساي في كانون الثاني سنة 1919. وكأن الدكتور سعاده أراد بذلك أن يبرز صوت الوطنيين السوريين في مقابل المخططات الاستعمارية التي كانت تعدها الدول المنتصرة في الحرب. "غير أن المؤتمر الذي علق الدكتور سعاده آمالاً كبيرة على انعقاده وأعماله وتوصياته لم يكن بحجم هذه الآمال، وإن كان حاول الإيحاء، في غير مناسبة، بنجاحه".[10] لكن الدكتور سليم مجاعص يشير إلى أن المؤتمر ترك بعض الآثار الإعلامية الإيجابية، معتمداً في تقديره هذا على أخبار نشرتها الصحف الأميركية في تلك الفترة إشتملت على تصريحات للدكتور سعاده حول مقررات المؤتمر الرافضة للوصاية الفرنسية والمطالبة باستقلال سورية بحدودها الجغرافية.[11] والواقع أن هذا الحزب أصبح ذكرى وعبرة عندما انتقل الدكتور سعاده إلى البرازيل بعد مضي أشهر على ذلك المؤتمر.

تلك هي الأجواء السياسية التي عايشها سعاده سنة 1920. والملفت للنظر، حسب المعلومات الموثقة المتوافرة لدينا، أنه لم ينتم إلى أي من هذه الجمعيات والأحزاب على رغم أن مقالاته الأولى كانت تحث المهاجرين السوريين على العمل المنظم من أجل تحرير سورية وتحقيق الإستقلال الناجز. كما أن والده، بعد ذلك النشاط الوطني الحافل في الأرجنتين، إكتفى في مرحلته البرازيلية الأولى بالعمل الصحافي في "الجريدة" و"المجلة"، واتخذ هاتين المطبوعتين منبراً لنشر الوعي الوطني بين المغتربين. ومن المنطقي هنا أن نطرح السؤال المفصلي التالي: لماذا تجنب

سعاده الانخراط في جمعيات السوريين وأحزابهم الناشطة آنذاك؟ نحن نعتقد أن الجواب سيتضح عندما ينتقل سعاده من الطور الإعلامي التمهيدي إلى الطور العملي المترافق مع كتاباته الصحافية، التي نرى أنها تضمنت رؤاه الجنينية إلى طبيعة العمل القومي في سورية.

كان الدكتور سعاده قد إنضم إلى الحركة الماسونية أثناء وجوده في فلسطين سنة 1895. وتقدم في صفوفها بسرعة ليصبح سكرتير المحفل ثم رئيسه.[12] ومن المؤكد أنه تابع نشاطه الماسوني في مصر ثم في الأرجنتين. وبعد أن استقر في سان باولو تولى رئاسة "محفل نجمة سورية" في أواخر نيسان سنة 1924، ما شجع ابنه الباحث عن قنوات لتأطير رغبته في تنظيم صفوف الجالية السورية في البرازيل. فما كاد سعاده يبلغ الحادية والعشرين من العمر في آذار سنة 1925 حتى انتمى إلى المحفل الذي يرأسه والده، ثم تولى بعد مدة قصيرة منصب سكرتير المحفل.[13]

بدأ سعاده العمل السياسي الفعلي المنظم بعد انتمائه إلى الحركة الماسونية، إذ عقد اجتماعاً دعا إليه عدداً من الشباب السوري المغترب بهدف تنظيم العمل القومي السياسي. ويؤكد جريج[14] وحردان[15] ومجاعص[16] على أن أول حزب شارك في تأسيسه كان "جمعية الشبيبة السورية الفدائية" سنة 1925 في مدينة سان باولو. وهم يقولون إن الأعضاء المجتمعين أناطوا به مهمة وضع مبادئ الجمعية وغايتها ونظامها. وفي حين أن جريج ومجاعص لا يذكران هذه المبادئ لأنها غير متوافرة بين أيدي الباحثين، فإن حردان

يعتمد على مرويات عدد من مجايلي سعاده في البرازيل لإيراد بعض التفاصيل عن مرحلة التأسيس ومبادئ الجمعية، ثم الخلافات التي عصفت بها ودفعت سعاده إلى الإستقالة مع مجموعة من الأعضاء الآخرين.

ومن المفيد هنا التوقف عند كلمة "الفدائية" في اسم الحزب لأنها تعكس أبعاد العمل الثوري الذي كان يطمح له سعاده. وتكشف لنا كتابات تلك المرحلة أن عدداً من الوطنيين السوريين أشادوا كثيراً بـ "العمل الفدائي" السوري ضد المستعمرين الفرنسيين، خصوصاً الهجوم على الجنرال غورو في منطقة القنيطرة سنة 1921. ففي مقال بعنوان "استدعاء غورو إلى باريس" ("الجريدة" في 24 أيلول سنة 1921) يقول الدكتور سعاده: "... كانت رصاصات الفدائيين في القنيطرة (...) الإنذار الأول الذي أيقظ الحكومة الفرنسية من سباتها وشفى شيئاً من عقمها".[17]

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها حردان أثناء إقامته في البرازيل للعثور على مبادئ الجمعية ومحاضر اجتماعاتها، إلا أنه لم يتمكن من الكشف عن أي شئ جديد سوى أحاديث الذكريات مع بعض الذين عاصروا تلك المرحلة المبكرة. لكن علينا أن نتعامل مع مرويات أولئك المعمرين بشئ من الحذر نظراً إلى بعد الفترة الزمنية الفاصلة بين تأسيس الجمعية سنة 1925 وتسجيل الذكريات في سبعينات القرن الماضي (صدر كتاب حردان سنة 1989).

غير أننا نعتقد أن مقال "القضية الوطنية: العودة إلى محجة الصواب خطوة جديدة نحو الفلاح" الذي نشره سعاده

في "المجلة" بتاريخ أول شباط 1924[18] يتضمن ما يمكن اعتباره أبرز مبادئ تلك الجمعية. بل لا نبالغ إذا قلنا إن التمعن في هذا المقال يُظهر لنا بوضوح بداية تبلور عدد من المبادئ الأساسية للحزب السوري القومي الاجتماعي كما سيضعها في مطلع ثلاثينات القرن الماضي. ولا شك في أنها كانت المسوّدة الأولى أو الإرهاصات المبكرة للحزب الذي أنشأه في الوطن سنة 1932.

يقول سعاده في ذلك المقال: "**فنحن هنا نريد أن ننظر في مجموعنا المنفصل عن سائر المجاميع الأخرى كما يجب أن ينظر فيه على هذه الكيفية السابقة لوجوده فيها (...) وهنا يجب علينا التنبيه إلى أن قضيتنا الوطنية التي تكلم عنها الغير كأنها قضيتهم الخاصة قضية خاصة بنا نحن ليس لأحد غيرنا أن يتصرف بها كما يريد وذلك باعتبارنا منفصلين عن غيرنا انفصالاً تاماً كما هو الواقع**". وهذا المعنى يرد في المبدأ الأساسي الثاني من مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي "**القضية السورية هي قضية قومية قائمة بنفسها مستقلة كل الاستقلال عن أية قضية أخرى**".

ويتابع أيضاً في المقال نفسه: "**فإننا رغماً من كل الفتوحات والغزوات التي أدخلت فينا عناصر وجنسيات غريبة بقينا أمة واحدة كاملة كيّفت من مختلف عناصرها وجنسياتها عوائد وتقاليد ومدنية امتازت هي دون غيرها بها**". ويضيف: "**...إننا رغماً من كل الأمم التي قدمت من أربعة أقطار المسكونة لابتلاعنا وجعلنا جزءاً منها، بقينا سوريين وأدغمنا عناصر تلك الأمم الغازية فينا على كيفية أصبحت معها من**

صميمنا تعيش عيشتنا وتشعر شعورنا وتتأثر تأثرنا وأصبحنا وإياها أمة واحدة". وهذا الكلام هو صيغة مبكرة للمبدأ الأساسي الرابع "**الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي**".

ثم يقول: "**وإذا أضفت إلى ما تقدم للأدلة الجغرافية التي تفصل بلادنا بخطوط طبيعية واضحة عن البلدان الأخرى، ظهر لك جلياً أننا مجموع بحق يدعى أمة وأن لنا بلاداً بحق تسمى وطناً كاملاً لا يمكن تجزأته**". ونجد هنا بوادر المبدأين الثالث "**القضية السورية هي قضية الأمة السورية والوطن السوري**"، والخامس "**الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية. وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها (...)**".

هذا على صعيد التفكير النظري، فماذا عن الجوانب العملية؟

الواقع أن مقال "القضية الوطنية" جاء في قسمين: الأول منهما عرض لـ "المبادئ" التي يرى سعاده أنها كفيلة بوضع القضية السورية على سكتها الحقيقية، والثاني دعوة مباشرة للعمل، ذلك "**أن حاضرنا ومستقبلنا قد تغيّرا تغيّراً حسناً جداً وأصبحنا أمام عمل حقيقي ومقرر (...) والخلاصة أننا أصبحنا الآن أمام عمل جدي يجب البحث فيه بصورة جدية**". **ويضيف: "أصبحنا ندرك قضيتنا الوطنية من وجهتها الحقيقية وصار في امكاننا أن نبحث ونعمل فيها من هذه الوجهة**".

ويختم سعاده مقاله بالعبارة التالية: "**...أما الممكنات التي**

تخولنا هذه النظرية استعمالها، فأهمها إمكانية توحيد قوانا وإمكانية البحث في قضيتنا بصراحة لأنها أصبحت قضية مقررة وإمكانية إيجاد حركة منظمة مبنية على التفاهم التام تسير في أعمالها بنشاط ودقة". ثم يوجه نداء إلى الجالية السورية في البرازيل يدعوها إلى العمل ويتساءل: "**ألا يجب عليها أن تسرع إلى الإنضمام إلى مفكريها والعمل بإرشادهم ونصائحهم لأجل خلاص الوطن؟**"

ويذكرنا هذا النداء بما سبق للدكتور سعاده أن دعا إليه في محاضرته المشهورة "حياتنا الوطنية" بتاريخ 5 حزيران سنة 1921، أي بعد أشهر قليلة على وصول أنطون وإخوته إلى البرازيل، والتي لا نشك في أن الإبن حضرها أو قرأها منشورة في "الجريدة" بتاريخ 18 حزيران سنة 1921. يقول الدكتور سعاده: "لا بد لنا من تنظيم حركاتنا الوطنية وأحزابنا السياسية (...) هذا التنظيم شرط لا بد منه في إحراز حقوقنا الطبيعية لأن إجراآتنا السياسية حتى الآن لم تكن منتظمة على الإطلاق، بل كثيراً ما كانت تتضارب وتتصادم فتفني الواحدة منها الأخرى لأننا لم نتعلم حتى الساعة النظام الواجب".[19]

وقد تعمدنا إطالة النظر في مقال "القضية الوطنية" لأنه يكشف عن المنهج الذي استخدمه سعاده سواء في الانتماء إلى الحركة الماسونية (من حيث سريتها وأنظمتها المتشددة)، أو تأسيس "جمعية الشبيبة السورية الفدائية" التي أرادها أن تظل سرية ريثما تنمو ويقوى عودها، أو تأسيس "حزب السوريين الأحرار" على غرار الجمعية السابقة التي لم يُكتب لها الإستمرار وفق مخططات سعاده الأساسية. ويقوم هذا

المنهج على قاعدة مثلثة الأضلاع تتكون من: المبادئ الواضحة الجلية، الدقة في التنظيم والعمل الجاد، وأخيراً اختيار وبناء العناصر القادرة على حمل متطلبات تحقيق غاية الجمعية أو الحزب. وسنرى كيف تعامل سعاده مع كل من هذه الأضلاع في الجمعيات والأحزاب التي إنتمى إليها أو أسسها.

هوامش الفصل الثالث

(1) أنطون سعاده، "الأعمال الكاملة"، الجزء الثالث، صفحة 177.

(2) جورج أديب كرم، "أحزاب اللبنانيين وجمعياتهم في الربع الأول من القرن العشرين". صفحة 101.

(3) نواف حردان، "سعاده في المهجر ـ الجزء الأول". صفحة 34.

(4) المرجع السابق، صفحة 46.

(5) المرجع السابق، صفحة 35.

(6) جان دايه، "الدكتور خليل سعاده: نتاجه الفكري وجهاده السياسي". صفحة 138.

(7) علي حمية، "العلامة الدكتور خليل سعاده: سيرته وأعماله". صفحة 114.

(8) حردان، مرجع سابق، صفحة 40.

(9) سليم مجاعص، "أنطون سعاده: سنو الشباب". صفحة 144.

(10) حمية، مرجع سابق، صفحة 140.

(11) خليل سعاده، "سورية من الحرب والمجاعة إلى مؤتمر الصلح ـ المجلد الأول". صفحة 33.

(12) مجاعص، مرجع سابق، صفحة 74.

(13) حردان، مرجع سابق، صفحة 140.

(14) جبران جريج، "أنطون سعاده منذ الولادة حتى التأسيس". صفحة 71.

(15) حردان، مرجع سابق، صفحة 142.

(16) مجاعص، مرجع سابق، صفحة 182.

(17) خليل سعاده، "سورية والانتداب الفرنسي 1920 ـ 1923"، صفحة 163.

(18) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول، صفحة 81.

(19)خليل سعاده، مرجع سابق، صفحة 120.

الفصل الرابع
تجارب حزبية فاشلة

من المؤكد أن انخراط الدكتور سعاده وابنه أنطون في العمل الماسوني من خلال "محفل نجمة سورية" في سان باولو كان أمراً متفقاً عليه بينهما. إذ أن تفكير هاتين الشخصيتين المسكونتين بهاجس شؤون الوطن وشجونه لا يترك مجالاً للشك في أنهما كانا يسعيان إلى تحقيق غاية اجتماعية وطنية أكبر بكثير من الطقوس الجامدة الخالية من أي مضمون عملي مفيد للجالية السورية في البرازيل. وكان هذا التوجه واضحاً في ما كتبه الدكتور سعاده بُعيد انتمائه الى المحفل: "لقد كانت الماسونية منذ بدء عهدها مناراً تستضيء به الشعوب وسيفاً يقطع دابر الاستبداد ويذبح الظلم والعبودية (...) كذلك سوف تسحق تحت أقدامها استبداد فرنسا في سورية".[1]

ذكرنا في ما سبق أن الأب تولى رئاسة المحفل في أواخر نيسان سنة 1924، وأن الإبن انضم إليه في آذار سنة 1925. ولكن لم تكد تمر سنتان على الأول وسنة على الثاني حتى أقدما على الإستقالة تباعاً من رئاسة المحفل ومن سكرتيريته،

بل ومن عضوية الحركة بالكامل، في خطوة منسقة بينهما، ما يُعزز رأينا بأن قرار المشاركة في فعاليات الحركة الماسونية في البرازيل كان جزءاً من مخطط عملي بين الأب والإبن لتحقيق أهداف معينة ستتضح لنا أكثر من خلال نص استقالة كل منهما.

في العاشر من أيار سنة 1926، قدّم الدكتور سعاده استقالته من "محفل نجمة سورية". وبعيداً عن اللياقات الاجتماعية التي تفرضها علاقته الطويلة بالحركة الماسونية، فقد كان صريحاً في قوله إنه تفاهم مع "الإخوان" عندما أصبح عضواً في المحفل على "وجوب الاشتغال بالقضية الوطنية لا الاقتصار على الطقوس الماسونية (...) ولكن يظهر أن الإخوان ليسوا كلهم على رأي واحد من هذا القبيل". ثم يختم كتاب الإستقالة قائلاً: "... والماسونية، إذا لم يكن لتعاليمها في سبيل الحرية نتائج فعلية، كانت تعاليم خيالية وطقوساً عقيمة".[2]

بعد ذلك بأسبوعين، وتحديداً في 24 أيار سنة 1926، قدّم سعاده الإبن استقالته من المحفل. واستخدم رسالة الاستقالة ليوضح عدداً من النقاط ذات الصلة بـ "عمله النهضوي". يقول إن الحركة الماسونية "**أنشئت لأصحاب الأفكار الحرة في العالم، والقصد منها تحرير الشعوب من قيود الاستبداد واستعباده، وتحرير العقل البشري من عبودية الأوهام والخرافات وسيطرتها**". ويضيف: "**إن الاشتغال في القضية الوطنية هو ما عجّل في انضمامي إلى "محفل نجمة سورية"، وهو ما عجّل في انضمام كثيرين غيري. ولكن**

المنطق الذي أستعمل في هذا المحفل، وهو التباعد عن السياسة، قد قضى على أكبر آمالنا". ويكشف سعاده أنه لما كان سياسياً قبل كل شيء، فإنه انصرف إلى الاشتغال بالسياسة خارج المحفل "**والشغل السياسي أخذ في المدة الأخيرة في الازدياد حتى أصبح يستغرق كل وقتي تقريباً**".[3]

ومن النقاط المهمة الأخرى الواردة في نص الاستقالة: إنتقاد الماسونيين السوريين لأنهم لم يوحدوا جهودهم على غرار الماسونيين من الجنسيات الأخرى، وانتقاد عدم إنشغال المحافل السورية بالقضايا السورية الوطنية الملحة، وانتقاد السماح بدخول أعضاء ليسوا أهلاً "**للإنخراط في سلك العشيرة المقدسة**"، وانتقاد التخلي عن الروحية الماسونية لأن "الاقتصار على الطقوس والتقاليد لا يعني إلا الانحطاط".[4]

ومع أن سعاده عاد في كتابات لاحقة إلى موضوع الحركة الماسونية، محذراً القوميين الاجتماعيين والمواطنين من مغبة الانتماء إليها، فما يهمنا الآن هو أبعاد استقالته منها. ذلك أن هذا القرار يؤشر إلى انخراطه في نشاطات أخرى بعد أن تبين له أن العمل من خلال "محفل نجمة سورية" البرازيلي لا يوصله إلى الغاية التي توخاها من عضويته. فقد أدرك أن سرية العمل الماسوني وطقوسية الحركة ونخبوية العضوية فيها لم تنفع في حث الماسونيين السوريين على التحرك في القضايا الوطنية. والخلل في هذه الحال لا يكمن في مبدأ السرية ولا في طبيعة الأشكال النظامية ولا حتى في الاعتماد على عناصر النخبة... وإنما هو في البنية المناقبية للإنسان السوري بشكل عام.

لم تكن تجربة سعاده في "جمعية الشبيبة السورية الفدائية" التي أسسها في مطلع سنة 1925[5] بأفضل منها في "محفل نجمة سورية". فهو أرادها سرية إلى أن تنمو وتقوى، رافضاً التحركات الاعتباطية العلنية مثل إرسال برقيات الاحتجاج والتأييد وما شابه، ساعياً إلى استقطاب العناصر الشابة الواعية التي لم تشوهها الأمراض الاجتماعية المنتشرة في أوساط الجاليات السورية في المغتربات. وبين أيدينا نص كتبه سعاده في تلك المرحلة يعطينا فكرة موجزة عن طبيعة ما كان يسعى إلى إنشائه: "**إننا قبل كل شئ من الذين يعتقدون بتأثير الجمعيات السياسية السرية. فلما جمعتنا الظروف ببعض الأصدقاء، لم نتمالك من إبداء رأينا بترجيح القيام بحركة فعلية لا تكون أقل من ثورة تديرها جمعية أو جمعيات تعمل في الخفاء لإنقاذ الوطن من الطامعين فيه المعتدين على حقوقه الاجتماعية والطبيعية**". (مقال "سورية تجاه بلفور". "المجلة"، تاريخ أول أيار 1925).[6]

وكان هذا الأمر واضحاً في ذهنه عندما كتب في "المجلة" مقاله الشهير "القضية الوطنية: الصهيونية وامتدادها"[7]، حيث يقول: "**حتى الآن لم تقم حركة سورية منظمة تنظر في شؤون سورية الوطنية ومصير الأمة السورية. لذلك نرى أننا نواجه الآن أعظم الحالات خطراً على وطننا ومجموعنا. فنحن أمام الطامعين والمعتدين في موقف تترتب عليه إحدى نتيجتين أساسيتين هما الحياة والموت، وأي نتيجة حصلت كنا نحن المسؤولين عن تبعتها**". ثم يضيف: "**لذلك يجب على كل سوري سواء كان في الوطن أو في المهجر أن يعمل لانقاذ وطنه من الذل والعبودية منخرطاً في**

الأحزاب والجمعيات الوطنية التي تمكنه من خدمة وطنه خدمة فعالة تترتب عليها نتائج كبيرة".

ولا شك في أنه تأثر إلى حد ما بنجاح التنظيمات التي أنشأتها الحركة الصهيونية العالمية سواء في فلسطين أو في الدول الأخرى، ومنها بالطبع البرازيل. وهو يعتبر من أوائل المفكرين الذين أدركوا أبعاد الخطر الصهيوني على الأمة السورية كلها، وليس فقط على قسمها الجنوبي. لكن هذا الوعي لم يقتصر على الجوانب القومية السياسية، وإنما استوعب أيضاً الطبيعة التنظيمية للحركة الصهيونية. ففي مقال مبكر له عنوانه "السوريون والاستقلال" ("الجريدة"، العدد 47، أول تشرين الأول 1921)[8] لاحظ أن "**للصهيونيين جمعيات وفروعاً في جميع أقطار المسكونة تعمل يداً واحدة لغاية واحدة وهي الاستيلاء على فلسطين وطرد سكانها السوريين منها**". ونحن نستنتج أن صورة تنظيم سوري له "**جمعيات وفروع في جميع أقطار المسكونة تعمل يداً واحدة لغاية واحدة**" كانت تبلورت جزئياً في ذهنه عندما سعى إلى تأسيس جمعيات فدائية وأحزاب قومية.

غير أن حساب الحقل لم ينطبق على حساب البيدر كما يقول المثل الشعبي، فالنزعة الفردية وحب الظهور والغايات الخصوصية والمنازعات الشخصية والدعايات المغرضة والدس الخبيث والتبجح بالأعمال السخيفة أدت إلى خلافات داخلية أجبرت سعاده وبعض الأعضاء المؤسسين على الاستقالة من الجمعية. ومع ذلك استمر الآخرون في العمل بعد تغيير الإسم إلى "الرابطة الوطنية السورية". ونحن نعلم

الكثير عن ظروف نشوء تلك الجمعية وانفراط عقدها، لأن سعاده عاد إلى موضوعها في كتاباته اللاحقة على اعتبار أن "الرابطة" واصلت "نشاطها" حتى مطلع أربعينات القرن الماضي. (رسالة سعاده إلى سليمان عزام بتاريخ 6 كانون الثاني 1927، مقال "المتآمرون يعودون إلى التآمر" بتاريخ 15 شباط 1941، مقال "شعب منقسم على ذاته" بتاريخ 5 نيسان 1941... وغيرها).

يظهر لنا من كتابات سعاده عن "جمعية الشبيبة السورية الفدائية" التي أصبحت "الرابطة الوطنية السورية" بعد مغادرته لها، وكذلك مما أورده حردان[9] نقلاً عن أشخاص عاصروا تلك المرحلة، أن الخلاف لم يكن فكرياً أو سياسياً بل هو في الأساس مناقبي نظامي. ولذلك عندما عاود أعضاء "الرابطة" الإتصال بسعاده طالبين منه الرجوع للعمل وفق ما يرتأيه هو شخصياً[10]، وبعد إلحاح شديد من قبلهم، وافق على العودة ضمن شروط محددة. غير أنهم سرعان ما أخلوا بها، ما دفعه إلى التخلي عنهم نهائياً والسعي إلى تأسيس حزب جديد بدعم من الذين أيدوه في مواقفه السياسية والتنظيمية من "الرابطة".

ومن المناسب هنا الإشارة إلى نقطة نظامية أثيرت في "الجمعية" و"الرابطة" إلا وهي موقع سعاده وصلاحياته كمؤسس أو كقائد. ينقل حردان عن كامل أبو كامل الذي كان مقيماً في البرازيل آنذاك قوله: "سارت الجمعية سيراً حسناً في البدء، لكن عندما بدأ سعاده يلقي أحاديثه وخطبه بقصد التوجيه والإرشاد والتثقيف وشرح مبادئ الجمعية، بدأ الفريق

الخبيث المعارض يتضايق، خاصة لأنه كان الأصغر سناً بينهم. ولم يكونوا بمستوى إدراك ما يقول والإحاطة بأفكاره وآفاقه العريضة".[11] وطرحت هذه النقطة أيضاً بعد تأسيس "حزب الأحرار السوريين"، ذلك أن الذين أصروا على الكشف عن النشاط الحزبي راحوا يقولون "إنه من الصعب جداً العمل مع سعاده. نحن نقدر ذكاءه وعبقريته، ولكننا نراه كبير الاعتداد بنفسه كثير العناد، ويتشبث برأيه ولا يحترم رأي سواه".[12] وسنتناول هذه المسألة المهمة في فصل لاحق، كونها ظلت مطروحة بشكل أو بآخر حتى سنة 1947، علماً أن سعاده كان قد أوجد لها الإطار التشريعي من خلال قسم الزعامة بعد تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي.

وهكذا نصل إلى "حزب الأحرار السوريين" الذي أسسه سعاده في كانون الأول سنة 1926[13] بعد فشل تجاربه في الحركة الماسونية و"الجمعية" و"الرابطة". ونحن لا نعرف الكثير عن هذا الحزب الذي لم يرد له ذكر سوى في مواقع قليلة متفرقة، منها: رسالة سعاده إلى سليمان عزام حيث يقول إن بعض المواطنين "**وجدوا أن أفضل وجهة للعمل هي أن أكلف أنا (أي سعاده) بوضع قواعد حزب سياسي جديد وميثاق سياسي نعمل بموجبه**".[14] ثم توجد إشارات متفرقة في رسائل سعاده عندما كان في الأرجنتين سنة 1941، ولكنها لا تتضمن معلومات مفصلة. وأخيراً جاء في مجموعة الأعمال الرسمية للحركة السورية القومية الاجتماعية المقطع التالي: "وحاول الزعيم بعد ذلك تأسيس حزب جديد، فجمع فئة من الشباب وألف منهم حزباً أسماه "حزب الأحرار"، ولكنه اكتشف عدم فائدة العمل الذي يريده في

المغترب، فقرر العودة إلى الوطن".[15]

لكن حردان ينقل عن راجي أبو جمرة، أحد معاصري تلك الفترة، أن سعاده قرأ في الاجتماع التأسيسي مبادئ الحزب التي تعنى بالتالي:

1 ـ سيادة الأمة السورية على نفسها.

2 ـ توحيد البلاد السورية ضمن حدودها الجغرافية.

3 ـ فصل الدين عن السياسة في الدولة السورية.

4 ـ مكافحة الطائفية.

5 ـ اعتماد القوة لنيل الأمة السورية حقوقها وبلوغ أهدافها.

هذا على مستوى المبادئ، أما على المستوى الإداري فقد كان نظام الحزب ينص على تأييد سلطة الزعيم في التشريع والتنظيم والقيادة، وأن يقسم كل عضو قسماً رسمياً عند الانتماء، وأن لا يتجاوز عمره الثلاثين سنة، وأن يبقى الحزب سرياً.[16]

ومع أن حردان يعطينا تفاصيل إضافية عن الحزب اعتماداً على مرويات عدد من المعاصرين، إلا أن المعلومات التي نشرها[17] نقلاً عن وثيقة ديبلوماسية هي عبارة عن رسالة من سفير فرنسا في البرازيل مسيو كونتي إلى وزارة الخارجية في باريس قد لا تعود إلى مرحلة نشاط "حزب الأحرار السوريين". يقول السفير في رسالته: "لقد تلقيت من المدعو أنطون سعاده مدير النشرة "أريفستا" (المقصود "الجريدة") بياناً يدّعي فيه أنه يحمل تواقيع عدة مئات من السوريين، والذي أرسله كبرقية احتجاج إلى البابا وإلى عصبة الأمم

وكذلك إلى صحافة أميركا الجنوبية وإنكلترا وفرنسا وإيطاليا. وقد تلى هذا البيان اجتماع السوريين بتاريخ 7 تشرين الثاني 1925 في سان باولو شارع فلورنسا دو أبرو رقم 45 والذي أسفر عن إدانة أعمال الفرق الفرنسية في سورية والتي هي بالتالي مخالفة للقوانين الدولية". وفي اعتقادنا إن تاريخ الرسالة 16 تشرين الثاني 1925 والتاريخ الوارد فيها عن اجتماع السوريين يعودان إلى فترة ما قبل تأسيس "حزب السوريين الأحرار".

الواضح مما سبق أن هذا الحزب لم يُعمر طويلاً، ويؤكد حردان أن سعاده قرر تجميد نشاطه سنة 1928. ولذلك لم تصل إلينا مبادئه وميثاقه وأنظمته الداخلية. ومع ذلك نستطيع التشديد على أن مبادئ وقواعد الجمعيات والأحزاب التي أسسها سعاده أو شارك في إنشائها موزعة بشكل أو بآخر في مقالاته المنشورة في "الجريدة" و"المجلة" قبل توقفهما. وهذا ما أوضحناه عند استعراضنا النقاط الأساسية في مقال "القضية الوطنية".

لقد فشل سعاده في تحقيق غاياته الوطنية في "محفل نجمة سورية" و"جمعية الشبيبة السورية الفدائية" و"حزب الأحرار السوريين". وهو يعترف بذلك، ولو بطريقة مداورة، عندما يقول في رسالته إلى حميد فرنجية: "**وكنت أحاول في جميع الأحزاب والجمعيات السورية التي اتفق لي الانخراط فيها أو تأسيسها أو الاتصال بها أن أوجه الأفكار إلى ما وصلتُ إليه، فلم أوفق كثيراً**".[18] غير أن هذا "الفشل" التنظيمي لم يبدل في قناعته بأهمية العمل الحزبي لتحقيق

الغايات القومية. لكنه أيضاً ما كان ليتردد في الاستقالة من حزب أسسه هو ووضع مبادئه عندما كان يتضح له أن ذلك الحزب قد انحرف عن خطه الفكري أو السياسي أو المناقبي. فقد كانت ممارسات الأعضاء، بالنسبة إليه، على نفس مستوى أهمية المبادئ والشعارات المطروحة. وأي خلل في جانب معيّن لا بد أن ينعكس سلباً على الجوانب الأخرى.

فبعد تجاربه وتجارب أبيه الغنية، أدرك أن التحركات السياسية المجردة لن تحقق الأهداف المنشودة بل بات من الضروري القيام بنهضة شاملة عنصرها الأساسي "الإنسان الجديد". وهذا ما يستدعي التركيز على بناء القيم المناقبية وليس الاكتفاء فقط بالتحركات المطلبية والشعارات السياسية البراقة. ذلك أن المواجهة ليست مع القوى المعادية داخلياً وخارجياً فحسب، وإنما هي أصعب ما تكون مع العقليات الرجعية الفردية الأنانية الكامنة حتى في نفوس المنتمين إلى الأحزاب الوطنية الجديدة.

فما هي العِبر والدروس التي خرج بها سعاده من تجاربه السياسية والحزبية في مغتربه الأول بالبرازيل؟

أ ـ العمل القومي الأساسي والمنظم، وفق عقيدة نهضوية واضحة، يجب أن يكون في الوطن.

ب ـ التنظيم الحزبي يجب أن يبدأ سرياً ريثما يتعزز وضعه الداخلي.

ج ـ الاعتماد على العناصر الشابة لأنها الأكثر قدرة على التحرر من قيود العقليات الرجعية، والأكثر استعداداً لتقبل الأفكار الثورية الجديدة.

د . عدم التهاون مع أي انحراف أو نزعات فردية أو تجمعات فئوية.

هـ . ضرورة اتخاذ القرارات الحاسمة لحماية المنظمة الحزبية حتى لو كان ذلك بالإستقالة أو بحل المنظمة نفسها.

و . نجاح أي عمل تنظيمي يكمن في العوامل التالية: المبادئ، النظام الداخلي (الدستور)، بناء العناصر المناقبية المؤهلة لحمل قيم النهضة، وأخيراً طبيعة العلاقة بين القائد المؤسس والمقبلين على الدعوة.

وهذا ما نراه متحققاً في قرار سعاده بتأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي في الوطن.

هوامش الفصل الرابع

(1) "المجلة"، سان باولو، حزيران 1924. نقلاً عن علي حمية، "العلامة الدكتور خليل سعاده: سيرته وأعماله". صفحة 173.

(2) علي حمية، المرجع السابق. صفحة 174.

(3) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول. صفحة 203.

(4) المرجع السابق، صفحة 205.

(5) نواف حردان، "سعاده في المهجر ـ الجزء الأول". صفحة 139.

(6) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول. صفحة 190.

(7) المرجع السابق، صفحة 173.

(8) المرجع السابق، صفحة 11.

(9) حردان، مرجع سابق، صفحة 141.

(10) رسالة سعاده إلى سليمان عزام. "الأعمال الكاملة"، الجزء التاسع. صفحة 1.

(11) حردان، مرجع سابق، صفحة 145.

(12) المرجع السابق، صفحة 189.

(13) مجاعص، مرجع سابق، صفحة 182.

(14) "الأعمال الكاملة"، الجزء التاسع. صفحة 1.

(15) جبران جريج، "أنطون سعاده منذ الولادة حتى التأسيس". صفحة 89.

(16) حردان، مرجع سابق، صفحة 147.

(17) المرجع السابق، صفحة 148.

(18) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثاني. صفحة 10.

الفصل الخامس
لا نهضة إلا في الوطن!

ترسّخت لدى سعاده، بعد حل "حزب الأحرار السوريين" سنة 1928، قناعة ثابتة مفادها أن الانحطاط المناقبي المستشري في صفوف المغتربين السوريين لا يمكن أن يُفسح المجال لنجاح أي عمل قومي نهضوي في المهجر. "**والذين لا يزالون يعتقدون أن المهاجر يظل مرتبطاً بوطنه وأمته وأهله هم على ضلال. فقد كنا في المهجر ورأينا عدداً كبيراً من رجالنا وشبابنا يهتمون بلهوهم والمقامرة أكثر كثيراً مما يهتمون بوطنهم وأهلهم. ومع تمادي الأيام لا يعود المهاجر يفكر في وطنه إلا نادراً**".[1] إن تجربة والده ثم تجربته هو الشخصية، وكذلك تجارب أحزاب وجمعيات أخرى في أميركا الجنوبية وأميركا الشمالية، أظهرت له أن الجاليات السورية لم تستطع الخروج من حضيض الإنتماءات المناطقية والكيانية والعرقية والطائفية والدينية. يُضاف إلى ذلك إنهماك غالبية السوريين بالسعي إلى المكاسب المادية والمنافع الفردية التي صدتهم عن الإلتفات إلى المسائل الوطنية الملحة.

ولعله تذكر ما كتبه والده في "المجلة" بتاريخ 15 حزيران سنة 1917: "يرى الناقد البصير أن الجمهور الأكبر من هذه الجوالي لا يزال هو بعينه تلك الجماعات الواهنة الأخلاق المفككة العرى الشديدة التعصب الكثيرة الشقاق الوافرة التبجح المتناكرة في أقوالها المتخاذلة في أفعالها التي امتلأت صدورها حقداً ونبضت قلوبها غلاً وضمت بين حنايا أضالعها ذلك الغرور الذي ظل هوة المباهاة وحشوة الجهل ومادته الضغينة ومصيره الإضرار بالنفس والغير".[2] وإذا كانت تلك صفات الجاليات السورية في الأرجنتين، فإن حالها في البرازيل لم تكن أفضل بكثير. كتب الدكتور سعاده في جريدة "الجريدة" بتاريخ 17 كانون الأول سنة 1921 متحدثاً عن دور القنصليات الفرنسية بين السوريين: "وما فعلته في الأرجنتين فعلته في سائر الجوالي فجرى تيار عنيف سطحي في مصلحة فرنسا، خُيل معه إلى المشاهد أنه سوف يجرف كل ما يقف في طريقه من العوائق. وقامت الجرائد المأجورة تطبل وتزمر للاحتلال وأطلقها كبار العبيد على كبار الأحرار، فتطاولت على شخصياتهم ونهشت أعراضهم وأمطرتهم وابلاً من السباب والشتيمة والبذاءة والسفاهة، فوجم الأحرار على كثرتهم ولزموا الصمت..."[3] ولذلك جزم سعاده الإبن "**بأن النهضة يجب أن تكون في الوطن حيث يساعد الواقع على الشعور بالحاجة إلى مبادئ جديدة**".[4]

الجاليات السورية التي أقامت بين ظهراني المجتمعات الجديدة في القارة الأميركية، وتعاملت مع نظم سياسية واقتصادية واجتماعية متطورة إلى حد بعيد مقارنة بما كانت عليه الأوضاع في سورية في ظل الهيمنة العثمانية ومن ثم

تحت حراب الاستعمار الفرنسي ـ الإنكليزي بعد الحرب العالمية الأولى... هذه الجاليات بقيت أسيرة خلافاتها وعنعناتها ومماحكاتها على رغم الجهود الجبارة التي بذلها عدد من القادة النهضويين في الوطن وفي المغتربات. وسرعان ما أدرك سعاده أن المهاجرين السوريين، في أحسن الأحوال، هم مجرد رديف للعمل القومي النهضوي الذي يجب أن ينطلق من الوطن حصراً ."**فالمهاجر ليس لوطنه الأول بل لوطنه الثاني**".[5]

إلى الوطن الأول توجهت أفكار سعاده ومشاريعه إبتداء من سنة 1928. في "المذكرات" المتفرقة التي دوّنها في العام 1929، ولم تنشر إلا في سنة 1938، يؤكد بوضوح: "**أين الوطن... إلى هناك تشتاق نفسي ويتزايد حنيني. هناك حضنتني أمي وهناك ترعرعت**".[6] غير أنه لم يكتفِ بهذه العبارات العاطفية الوجدانية، وإنما نراه يحدد الهدف من "شوقه" إلى الوطن عندما يطرح بعضاً من تساؤلاته الوجودية في مدونة يوم 13 أيار: "**سألت نفسي اليوم ما هي قيمة الحياة بدون مبدأ؟ ما هي الحياة بدون مثل منشود؟**". ثم يكتب بعد ستة أيام: "**يجب أن أقوم بمطلوب مبدأي مع كل ما يعرض لي من ألم الروح، فالحياة قصيرة لا تسمح بضياع الوقت في البكاء من الألم (...) يجب أن أنسى جراح نفسي النازفة لكي أساعد على ضمد جراح أمتي البالغة**".

قرار سعاده بالعودة إلى الوطن اشتمل على مشروع رسالة نهضوية (مبدأ) ذات قيم مناقبية عليا (مثل منشود). وهو اعتقد أن لا خلاص للشعب السوري وللأمة السورية من واقعهما

المأسوي إلا بالمبدأ والمثل المنشود. يقول في محاضرة "مبادئ أساسية في التربية القومية" التي ألقاها في بيروت أواخر سنة 1932: "**إن أغراض الأمم السامية هي مطالبها العليا، أما الحرية والاستقلال فليسا سوى الوسيلتين اللتين لا غنى للأمم عنهما لتحقيق تلك المطالب. ومتى بطل أن يكون لأمة ما مثلٌ أعلى تريد تحقيقه، لم تبق لها حاجة إلى الحرية والاستقلال(...) أن كل مبدأ عام لا يكون الغرض منه خير الشعب وضمان وسائل تقدمه نحو مثله الأعلى يكون عديم الفائدة**".[7]

وسوف يتبين لنا لاحقاً، حتى بعد تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي في الوطن، أن سعاده يرجع مراراً وتكراراً إلى هذه الثنائية المتلازمة. ففي ندائه إلى الجالية السورية في البرازيل بتاريخ 5 حزيران 1934، بمناسبة وفاة والده في سان باولو، يعود مجدداً إلى التساؤلات الوجودية: "**هل نحن أمة حية؟ هل نحن مجموع له هدف من الحياة؟ هل نحن قوم لهم مثل عليا؟ هل نحن أمة لها إرادة واحدة؟ هل نحن جماعة تعرف أهمية الأعمال النظامية؟**"[8]

ومع أنه يدعو الذين يتوجه إليهم بهذا النداء إلى البحث عن أجوبة لأن "**أمتنا كانت منذ عصور قديمة جداً أمام عدة مسائل تتطلب أجوبة صحيحة**"، فمن المؤكد أنه كان قد توصل بنفسه إلى بعض تلك "الأجوبة"... وإلا لما كان قد أنهى ارتباطاته بالمهجر وعاد إلى الوطن ساعياً إلى بث روح النهضة في المجتمع السوري الخارج من قرون الانحطاط المديدة.

وصل سعاده إلى بيروت في 5 تموز سنة 1930، وتوجه على الفور إلى ضهور الشوير حيث أمضى الأشهر الأولى بين أقاربه، مجدداً العلاقة مع بعض معارفه القدامى. وتظهر مرويات تلك الفترة[9] أنه أكد للذين تواصل معهم أن عودته إلى الوطن تهدف إلى إنشاء حزب ينهض بالأمة والبلاد. وما كان سعاده ليطيل إقامته في الشوير أو بيروت طالما أنه يريد تأسيس حركة نهضوية جذرية، ذلك أن الفساد السياسي والاجتماعي والمناقبي كان قد تفشى في ظل الاستعمار الفرنسي الذي نجح في التلاعب بالحساسيات الدينية والمذهبية داخل الكيان اللبناني الوليد، ما جعل إمكانية النجاح في أي نشاط نهضوي صعبة للغاية.

وما أن أطل خريف سنة 1930، حتى كان سعاده يشد رحاله إلى دمشق لاعتقاده بأن هذه المدينة السورية العريقة هي مركز العمل الوطني في سورية كلها. فدمشق هي التي استقطبت الحراك السياسي الوطني بعد الحرب العالمية الأولى، من المؤتمر السوري العام سنة 1920 وصولاً إلى الثورة السورية الكبرى سنة 1925. وقد أشار لاحقاً إلى أنه استقر في دمشق لأنها كانت "**محور الحركات الوطنية على ما يظهر**".[10] وكان سبق له أن كتب في مقال "سورية تجاه بلفور" سنة 1925: "**كان أعظم استياء في سورية اتخذ وجهة خطرة هو الاستياء الذي حدث في دمشق عاصمة سورية وكعبة الحركة الوطنية السورية. فإن ما جرى في دمشق على أثر وصول بلفور إليها لمما يستحق التسجيل في بطون التاريخ. وإننا عند اطلاعنا على تفاصيل ما حدث في دمشق كما نشرتها جريدة "ألف باء" الدمشقية، لم نتمالك من**

الهتاف لدمشق وحياة دمشق".[11]

نحن نعتقد بأن المبادئ الأولية لإنشاء الحزب النهضوي، كما تصوره سعاده، كانت شبه جاهزة في تفكيره العملي. وكنا أشرنا إلى قسم منها في فصل سابق عندما تناولنا مقال "القضية الوطنية: العودة إلى محجة الصواب خطوة جديدة نحو الفلاح" المنشور في "المجلة" بتاريخ أول شباط سنة 1924. كما توجد عناصر تكمل تلك المبادئ في مقال "رد على لويد جورج" المنشور في جريدة "ألف باء" الدمشقية بتاريخ نيسان سنة 1931. ففي رسالته الثانية إلى غسان تويني بتاريخ 7 نيسان 1946[12] يقول عن فخري معلوف إنه كان أول "**الذين تعرفوا إليّ وإلى فكرتي بعد عودتي إلى الوطن سنة 1930**". ويعود في الرسالة الرابعة إلى تويني بتاريخ 26 أيار سنة 1946 إلى القول: "**بدأت بث أفكاري ودعوتي في سنة 1930**".[13] وهذا يؤكد ما أشرنا إليه أعلاه من أنه كان يحمل "**فكرة**" أو "**أفكاراً**" واضحة يريد أن يضعها موضع التنفيذ الفعلي في الوطن.

ومع ذلك سعى سعاده في دمشق إلى استكشاف مجالات التعاون مع "الكتلة الوطنية"، باحثاً في كل الاحتمالات الممكنة. ففي تلك الفترة المبكرة لم يكن تأسيس "حزب" (أي حزب) هو غايته الأساسية، وإنما الغاية هي تحقيق النهضة التي يصف جوانب منها بأنها "**الصراع بين الخمول وعهد التنبه والنهوض، العراك بين الأنانية والخير العام، بين المادية الحقيرة والنفسية السامية، بين الحيوانية والإنسانية، بين الرذيلة والفضيلة**".[14] فما الذي وجده عند رجال

السياسة والفكر والاجتماع في دمشق "كعبة الحركة الوطنية السورية" آنذاك؟

بين أيدينا مجموعة نصوص كتبها سعاده في مرحلة لاحقة تصف ما عاناه في دمشق من رجال السياسة "الوطنية السورية". في خطاب الأول من آذار سنة 1938 يقول: "...**نشأت الشركات السياسية لاستثمار النزعات المختلفة باسم "الوطنية". وقد عملت هذه الشركات طويلاً لغايات مبهمة من الوطنية بعيدة عن تنظيم الشعب وعقائده وعن إيجاد المؤسسات الصالحة للعمل القومي، وعن وضع قواعد تربية اجتماعية سياسية جديرة بتوليد المعنويات القوية الكامنة في نفسية الأمة**".[15] وهناك أيضاً سلسلة مقالات نشرها في جريدة "النهضة" خلال أيار سنة 1938 تحت عنوان "حقوق الأمة بين الكتلة الوطنية والأجانب"، مسترجعاً فيها تجربته العملية في دمشق بين 1930 و1931، قائلاً: "**إن أعمال "الكتلة الوطنية" لم تكن إلا ألاعيب صبيانية بالنسبة إلى العمل القومي الجبار**".[16] ثم يضيف في مقال آخر: "**وكانت الاجتماعات تنفض بعد أن يقول أحدهم قولاً وجيهاً أو يبدي ثورة عاطفية تهز الآخرين وتدفعهم في حركة اعتباطية لا دراسة فيها ولا تخطيط**".[17]

الفشل الجديد الذي واجهه سعاده، في الوطن هذه المرة، لم يكن ناجماً عن قصور في المبادئ التي باتت واضحة كل الوضوح في ذهنه ووجدانه. كما أنه لم يفقد الأمل على الإطلاق بأهلية الشعب السوري لتقبل مبادئ الحياة الجديدة. العقبة الكبرى تمثلت في رجال السياسة

التقليدية الرجعية الذين أشار إليهم في خطاب ألقاه بمناسبة الأول من آذار سنة 1940 في الأرجنتين بقوله: "**في الوطن أيضاً وجدت السبل مسدودة في وجهي حين عودتي من المهجر لأضع القواعد الأساسية لنهضة أمتي، ولأجد الطرق العملية لسير شعبي نحو الحياة المجيدة. جميع أراخنة السياسة والاجتماع كانوا مجمعين على أنه لا فائدة من فعل شئ وأنه لا تقوم للأمة السورية قائمة**".[18]

إحدى المشاكل المهمة التي كان على سعاده مجابهتها في سبيل "**وضع القواعد الأساسية لنهضة الأمة**" تكمن في أن "**تقسيم البلاد إلى دول إسمية قضى على وحدة العمل القومي الوطني**".[19] وقد توقع أن نشاطه في دمشق من أجل "بث أفكاره ودعوته" يمكن ان يُعطي النتيجة المرجوة في أوساط النخبة الشامية المدينية نظراً إلى "أن الاتجاه العام لهذه النخبة كان النضال في سبيل الاستقلال وتوحيد سورية".[20] غير أن إتصالاته مع القيادات السياسية الشامية، ومتابعته أساليب إدارتها للعلاقات مع السلطات الإستعمارية، كشفت له عجز تلك الطبقات الحاكمة التي، وإن رفضت الاحتلال الفرنسي شكلاً، كانت عاجزة عن النظر إلى أبعد من الوضع الراهن، وافتقدت مثالاً أعلى تطمح إلى تحقيقه. هذه النخبة كانت مؤلفة من مثلث "مالكي الأرض ورجال الدين والتجار"، وقد أصاب هذا المثلث المتضامن "الحياة السياسية في سورية بالعقم، وأعاق ظهور الأحزاب السياسية الحديثة بعد رحيل الحكم التركي عن البلاد. وظلت السياسة العامة تدور في نطاق الأحزاب التقليدية".[21]

أمضى سعاده في دمشق حوالي السنة ونصف السنة كانت كافية لإقناعه بعدم جدوى التعاون أو المشاركة مع القوى السياسية الناشطة في الكيان الشامي. يقول في جلسة تحقيق مع المحقق حسن قبلان بعد الاعتقال الثاني سنة 1936، متحدثاً عن تلك المرحلة: "**أقمت في دمشق نحو سنة ونصف سنة كنت فيها على صلة شخصية مع بعض رجال الكتلة الوطنية. ولما كانت هذه الكتلة غير منظمة في ذلك العهد، ولم يكن لها شكل مؤسسة أو جمعية، فلم أجد أية وسيلة للتفاهم والتعاون معهم. فأبقيت النتيجة التي توصلت إليها لنفسي، ورأيت جو دمشق ملبداً بالغيوم، فتركتها صيف 1932**".[22]

وعندما حزم أمره عائداً مرة أخرى إلى ضهور الشوير في أواخر صيف سنة 1931، كانت قد تعززت عنده مجموعة من المسلمات سيكون لها الأثر الحاسم في طبيعة تفكيره النظري والعملي، وفي أسلوب تأسيس وتنظيم الحزب الذي بات ضرورة ملحة للمباشرة في عمل يؤدي إلى "**إنتهاء عهد الخمول وبزوغ شمس يقظة الشعب السوري**".[23] ولأنه كان قد عقد العزم "**على نشوء روح جديدة في الأمة تجدد حياتها وتقوي حيويتها وتنصرها على عوامل الخمول والجمود**"[24]، بات الطريق أمامه واضح المعالم، يقوم على نهضة شاملة تبني المواطنين فرداً فرداً في إطار نظامي يحمي العقيدة والمؤمنين بها من مؤثرات عوامل الانحطاط والرجعة في سورية.

ولعلنا نتبين الحالة الفكرية النفسية لسعاده، في نهاية تلك

المرحلة الدمشقية، من خلال الحوار الذي وضعه على لسان شخصيتين من شخصيات قصة "فاجعة حب"[25]. يقول السيد (ج) الذي يمثل العقلية الإنهزامية المنحطة للسيد (أ) الذي نعتقد أنه يمثل سعاده نفسه: "السوريون فاسدون. فهم لا يقدمون على أمر إلا ظهر فيه فسادهم وعجزهم". فيرد عليه السيد (أ): "لا أعتقد أن شعبنا على ما تذكرون من الفساد. أجل، يوجد فينا عيوب تهذيبية كثيرة ولكن نهضة إصلاحية مخلصة تكفل إزالتها". لكن السيد (ج) يعلق ساخراً: "ومن أين يأتي الإصلاح؟ أين رجال الإصلاح؟ أين رجال الإخلاص؟ أين النوابغ؟ أين أهل العزيمة والإقدام؟ بل أين رجال التضحية؟ إن ما تقولون رأي جميل، ولكن الأمر عبث، عبث".

ولكي يثبت سعاده خطأ أصحاب النفسية الإنهزامية المستسلمة أمثال السيد (ج)، عاد إلى بيروت وقد إكتملت في ذهنه ووجدانه خطة العمل النهضوي الشامل. لكنه كان، في الوقت نفسه، متأكداً من أن البنية المناقبية الفاسدة للشعب السوري لن تُعالج بقيام حزب سياسي عادي، وإنما هي بحاجة إلى حزب ذي طبيعة خاصة لا يعتمد فقط على المبادئ مهما كانت مقنعة بل على التربية القومية النهضوية. لذلك حمل في عقله تصميماً قوياً على التشدد في اختيار العناصر المؤهلة لحمل تبعات العضوية، ووضع شروطاً صارمة للإنتماء، مع الإصرار على تحديد موجبات العلاقة بين صاحب الدعوة والمقبلين على اعتناقها.

هوامش الفصل الخامس

(1) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول. صفحة 478.

(2) خليل سعاده، "سورية من الحرب والمجاعة إلى مؤتمر الصلح ـ المجلد الأول". صفحة 206.

(3) المرجع السابق، صفحة 363.

(4) من ملفات التحقيق في الاعتقال الثاني. جان دايه، "محاكمة أنطون سعاده ـ وثائق التحقيق الرسمي". صفحة 72.

(5) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول، صفحة 478.

(6) المرجع السابق، صفحة 220.

(7) المرجع السابق، صفحة 382.

(8) المرجع السابق، صفحة 491.

(9) جبران جريج، "أنطون سعاده منذ الولادة حتى التأسيس"، صفحة 112.

(10) من ملفات التحقيق في الاعتقال الثاني. جان دايه، "محاكمة أنطون سعاده ـ وثائق التحقيق الرسمي". صفحة 72.

(11) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول. صفحة 190.

(12) المرجع السابق، الجزء الحادي عشر. صفحة 66.

(13) المرجع السابق، الجزء الأول. صفحة 98.

(14) المرجع السابق، صفحة 320.

(15) المرجع السابق، الجزء الثالث. صفحة 179.

(16) المرجع السابق، صفحة 268.

(17) المرجع السابق، صفحة 273.

(18) المرجع السابق، الجزء الرابع. صفحة 22.

(19) المرجع السابق، الجزء الأول. صفحة 316.

(20) صقر أبو فخر، "أعيان الشام وإعاقة العلمانية في سورية". صفحة 12.

(21) المرجع السابق، صفحة 69.

(22) من ملفات التحقيق في الاعتقال الثاني. جان دايه، "محاكمة أنطون سعاده ـ وثائق التحقيق الرسمي". صفحة 73.

(23) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول. صفحة 349.

(24) المرجع السابق، صفحة 367.

(25) المرجع السابق، صفحة 360.

الفصل السادس
حزب بآليات ومعايير مختلفة

يرى الدكتور سليم مجاعص[1] أن قرار سعاده بالرجوع إلى لبنان، والتخلي عن فكرة جعل دمشق حاضنة لتأسيس الحزب الذي باتت صيغته المبدئية واضحة المعالم في ذهنه، يعود في الدرجة الأولى إلى اعتبارات شخصية وأخرى سياسية عملية، على الرغم من أنه كان قد حقق حضوراً ملحوظاً في الصحافة الدمشقية البارزة وفي عدد من الدوائر الاجتماعية والفكرية المهمة. ذلك أن التركيبة الاجتماعية المنفتحة للكيان اللبناني، وازدهار الحياة الفكرية والثقافية فيه، واتخاذ سلطات الإنتداب بيروت مقراً لها، إضافة إلى الإلفة التي كان سعاده يشعر بها بين الشوير وبيروت، ربما كانت من العناصر التي شجعته على العودة والبدء من جديد بمساعيه النهضوية.

لعل بعض هذه الاعتبارات مما ساهم في حسم سعاده قراره بأن يكون التأسيس في لبنان، لكننا نعتقد أيضاً بأن الأجواء الاجتماعية والسياسية والثقافية العامة في دمشق لم تكن مؤهلة بعد لتقبل طرحه النهضوي التجديدي. إن

تفاصيل[2] رفض محمد كرد علي، رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق ووزير المعارف في الحكومة الشامية المؤقتة، لمحاضرة سعاده المعنونة "مبادئ أساسية في التربية القومية" خير دليل على ما نقول. وهناك وثيقة بخط يده[3]، صُودرت مع أوراق حزبية أثناء الاعتقال الثاني سنة 1936، جاء فيها: "**وجدتُ في دمشق هواء عليلاً ومناخاً حسناً وأزهاراً جميلة ونساء جميلات، ووجدتُ غنى كثيراً وكبرياء عظيمة ولطفاً متناهياً... ولكن بحثتُ عن الأخلاق الحية فلم أجدها**". وإذا ربطنا هذه العبارة الحادة والقاسية بما ذكره في التحقيق آنذاك من أنه رأى "جو دمشق ملبداً بالغيوم"، فسيتأكد لنا أنه تعرض لتجربة مريرة في العاصمة السورية لا نعرف شيئاً عن تفاصيلها.

لا شك في أن سعاده صُدم بالأجواء الاجتماعية والسياسية المريضة في دمشق التي كان ينظر إليها بوصفها "كعبة الحركة الوطنية" في الأمة السورية. فالعمل القومي مفقود نهائياً، في حين أن نشاطات الجمعيات والشخصيات الوطنية لم تتجاوز التحركات الاعتباطية غير المفيدة على صعيد تحقيق المصالح السورية الحيوية في مواجهة مخاطر الاستعمار الفرنسي والبريطاني. والأدهى من ذلك أن المتنطحين لقيادة العمل السياسي كانوا منغلقين تماماً أمام أية أفكار جديدة يحملها سعاده أو غيره، ويمكن أن تسمو بالعمل الوطني عن مستواه الكياني الضيق إلى رحاب المصلحة القومية العامة القائمة على وعي شعبي راسخ بالهوية القومية.

كان على سعاده، والحالة هذه، أن يبحث في مكان آخر

عن عناصر تملك الاستعداد العقلي والمناقبي لتحمل مسؤولية عمل إنشائي مصيري أراده أن يكون انتقالاً شاملاً من زمن الانحطاط إلى عصر النهضة القومية. فهو لم يهدف إلى تأسيس حزب سياسي بالمعنى التقليدي المتعارف عليه في سورية مطلع ثلاثينات القرن الماضي. إنه يتطلع نحو "**مثال أعلى**"، والمهمة الجوهرية بالنسبة إليه هي تحقيق نهضة قومية في بلاد عايشت قروناً عدة من ضياع الهوية القومية من جهة والانحطاط المناقبي الذي أوجده غياب السيادة القومية من جهة أخرى. أما الحزب، من حيث هو أشكال نظامية، فيعتبر إحدى وسائل حماية النهضة من قوى التخلف والرجعية المضادة. وسعاده، الذي تعمق في دروس اجتماعية وسياسية واقتصادية أوصلته إلى تعيين الهوية القومية، وجد كذلك أنه لا بد "**من إيجاد وسائل تؤمن حماية النهضة القومية الجديدة في سيرها. ومن هنا نشأت فيّ فكرة إنشاء حزب سري يجمع، في الدرجة الأولى، عنصر الشباب النزيه البعيد عن مفاسد السياسة المنحطة**".[4]

إن البحث عن "**عنصر الشباب النزيه**" أوصل سعاده إلى الجامعة الأميركية في بيروت حيث باشر تحركه الفعلي لتأسيس الحزب السوري القومي. استهدف في بادئ الأمر "**الطبقة المتعلمة المتنورة**"، وخاطب الذين توسم فيهم القبول فرداً فرداً لأن "**الشعب ليس إلا مجموع أفراده، فكما تكون حقيقتهم تكون حقيقته**"[5]. ومن هنا نفهم مغزى ما قاله في رسالة إلى غسان تويني بتاريخ 12 كانون الأول 1946: "**...الحزب الذي نشأ بالاعتناق التتابعي للعقيدة من قبل الأفراد وليس باجتماع في يوم معين**".[6] وهذا الأمر سيحدد

لاحقاً الطبيعة التعاقدية بين واضع أسس النهضة والمقبلين على دعوته.

إمتلك سعاده خطة واضحة ومُحكمة لإطلاق عمله التأسيسي بين ضهور الشوير والجامعة الأميركية، قامت على قاعدتين: الأولى، التبشير بالعقيدة النهضوية من خلال عملية تثقيف وتوعية جذرية. والثانية، وضع الأسس التنظيمية للحزب الذي سيحمي هذه النهضة التجديدية. فاعتناق الفكرة الجديدة والإيمان بها غير كافيين لوحدهما، بل يجب تحقيقهما في إطار تنظيمي هو الحزب. كما أن الترابط بين العقيدة والنظام لا يمكن أن يتبلور إلا وفق منظومة قيم تحضن الممارسة القومية الحزبية، وتشكل بوصلة قيادتها في الاتجاه الصحيح. أما أسلوب العمل فكان أيضاً في اتجاهين: سري من خلال الإتصالات الفردية، وعلني عن طريق المحاضرات والكتابة الصحافية. ولأن تجاربه أوصلته إلى خلاصة مفادها أن المبادئ التي يبشر بها ورؤيته المختلفة إلى قضية الأمة تحتاج إلى نفوس لم تكن قد خضعت بعد لمؤثرات إنحطاطية، فلذلك ركز مساعيه على طبقة المتنورين بين السوريين.

لم تكن مهمة تربية "المتنورين" من بين طلبة الجامعة الأميركية سهلة على الإطلاق. فقد تبين لسعاده، بعد احتكاكه الوثيق بالطلبة والأساتذة الذين هم "نخبة" المجتمع السوري آنذاك، أن الفساد أصاب هؤلاء أيضاً فأساءوا استعمال العلوم الحديثة المعطاة لهم ."**إن متخرجي هذه الجامعات السوريين لم يستخدموا هذه العلوم لترقية مقدرتهم على إصلاح وطنهم**

وبيوتهم وشؤون أمتهم وترقية حياتهم وتهذيب أولادهم. بل استخدموها للإنصراف عن العمل المتعب الذي يحتاج إلى الجهد وعرق الجبين، وطلب الأعمال الكتابية الهينة في بلاد الغربة. إنهم فضلوا الاستخدام على السيادة، والاعتماد على الغير على الأستقلال".[7] ومع ذلك، كان هؤلاء هم المادة البشرية الخام المتاحة له، والمؤهلة للإنخراط في عملية البناء النهضوي.

آمن سعاده بأن المجتمع السوري في تلك الفترة كان يضم "**طبقة متنورة**" وأخرى "**قابلة للتنوير**"، ما عزز عنده الأمل بنجاح نشاطه النهضوي. فبالنسبة إليه، كانت النخبة أو الطبقة المتنورة تحتاج إلى من يكشف أمامها طريق النهوض كي تنتقل من طور الكمون إلى طور الفعل، لأنها إذا لم تكن "**صحيحة فقلما تكون حياة الشعب كذلك**". لكن دورها مشروط، كما يرى[8]، بتحملها مهمة توعية وتثقيف "**الطبقة القابلة للتنوير**". وهكذا بدأ بحثه مرة أخرى "**عن العناصر الجديدة السليمة وتعليمها المبادئ الجديدة وإفهامها قضية الأمة**"،[9] كخطوة لا بد منها لإنشاء حزب سياسي اجتماعي يُحدث ثورة في التفكير.

المبادئ التي عرضها سعاده على الذين وقع عليهم خياره التمهيدي لم تكن جديدة كلياً، وإنما جاءت في سياق التطور الطبيعي لما كان قد باشر به في البرازيل بين 1925 و1930. إنها لم تنشأ من فراغ، بل هي محصلة سنوات من تجاربه وتجارب أبيه وتجارب الجمعيات والأحزاب السورية التي أسسها أو ساهم في تأسيسها أو قيد له أن يتعامل معها في

المهجر وفي الوطن. الشئ المختلف في هذه المرحلة تمثل في آلية اختيار العناصر المناسبة، مع التركيز على المعايير المناقبية الراقية، ثم وضع الأسس النظامية الدستورية للصيغة التعاقدية التي أرادها أن تحكم العلاقة بينه وبين أعضاء الحزب الجديد.

نحن نعرف من خلال مرويات ومذكرات عدد من أعضاء الرعيل الأول في الحزب، أمثال جورج عبد المسيح وجبران جريج وعبدالله قبرصي[10]، أن مادة النقاش في مطلع سنة 1932 كانت عبارة عن ورقة دفتر سُجلت عليها بخط اليد المبادئ الأساسية والمبادئ الإصلاحية ونص القسم الحزبي. تولى سعاده شرح المبادئ لكل مقبل على الدعوة بأسلوب التواصل الفردي السري. أما على المستوى العلني، فقد أعاد إصدار مجلة "المجلة" لتكون منبراً لأفكاره الجديدة. وهذا ما تؤكده إفادته في تحقيقات الإعتقال الثاني سنة 1936 إذ يقول: "**إن كتاباتي في "المجلة" منذ سنة 1933 في المهجر وفي بيروت تتضمن خلاصة أفكاري السياسية في قضية بلادي**".[11] ويمكننا وضع المحاضرات التي ألقاها في تلك الفترة وصدور كتابه "قصتان" سنة 1931 في خانة النشاط التثقيفي العلني المكمل لعملية التبشير الفردي.

أما من حيث الطبيعة التنظيمية للحزب، فنحن نعرف من خلال كتابات سعاده في البرازيل أنه استفاد من التجارب الوطنية المتنوعة ليصل إلى نتيجة عبّر عنها بقوله "**إن تاريخنا الماضي يدلنا على أن موضع الضعف في حياتنا الوطنية هو هنا، أي في عدم وجود أحزاب وجمعيات قوية علنية كانت**

أم سرية تضع نصب أعينها العمل بمبدأ القوة المنظمة".[12] ومع ذلك، كان عليه أن يقوم بالتجارب الأولى بين الذين تخيّرهم موضوعاً للتربية القومية، تاركاً للظروف اللاحقة ولطبيعة تقبل الشعب للمبادئ الجديدة أن تحدد كيفية نشوء الحزب وفق مبدأ القوة المنظمة.

في خريف سنة 1932 تأسس الحزب السوري القومي فعلياً من خمسة أشخاص بعد سنتين كاملتين من اللقاءات والحوارات والتحضيرات، مع تطبيق قواعد صارمة في إنتقاء الأعضاء. وباستثناء قسم العضوية، لم تكن هناك مواد دستورية محددة ترسم الحقوق والواجبات بين المؤسس والأعضاء. ذلك أن سعاده كان أمام مهمتين ضروريتين: إيضاح الهوية القومية وترسيخها في نفوس المقبلين على الدعوة، ثم إيجاد المؤسسات الصالحة للإرتكاز في عمل النهضة: "**كان عليّ أن أضع قواعد الحياة القومية وفلسفة الحياة القومية الاجتماعية، وأن أشرع للمنظمة القومية الاجتماعية التي أعلنتها سنة 1935 دولة الشعب السوري الاجتماعية المستقلة الحقوق والواجبات العامة، وأن أؤسس المؤسسات الجديدة الصالحة للحياة الجديدة التي نريدها ولمثلها العليا**".[13] وتوضح هذه العبارة أن الأولوية بالنسبة إليه يجب أن تُعطى لخلق تربية قومية عامة، في حين أن الأشكال التنظيمية الإدارية يمكن أن تنشأ تباعاً حسب تطور العمل الحزبي، على أن تكون صالحة للحياة الجديدة ولمثلها العليا.

وعلى الرغم من حرص سعاده الشديد في إنتقاء المؤهلين

لاعتناق العقيدة الجديدة، فإن الخمسة الأول لم يكونوا جميعاً على السوية نفسها من حيث الاقتناع والفهم القومي السليم. يقول في خطاب الأول من آذار سنة 1938 إن إثنين من الخمسة "**كانا متأثرين بالإختلاطات السياسية الجارية. لكني رأيت الاستعانة بهذا العدد غير المتجانس على القيام بالاختبار الأول لتأسيس الحزب**".[14] ومن المهم أن نبقي عبارة "الاختبار الأول" في أذهاننا عندما نصل لاحقاً إلى مرحلة وضع مواد التشريع الأساسية في الحزب.

أسفر هذا "**الأختبار الأول**" عن أول أزمة داخلية في الحزب الوليد. إثنان من الأعضاء الخمسة كشفا عن اختلاطات سياسية ومناقبية دفعت المؤسس إلى التفكير بوسيلة تؤمن له التخلص منهما، من دون التضحية بمبدأ سرية المنظمة القومية. لكن سعاده واجه إشكالية عدم وجود نصوص دستورية تنظم العلاقة بين الأعضاء من جهة وبينهم وبين صاحب الدعوة من جهة أخرى. لذلك لجأ إلى علاج مبتكر: "**ولما لم يكن قد وُضع للحزب دستور رأيت أن يكون الطرد بصورة حل الحزب**".[15] نجحت هذه الحيلة بالتوافق مع الثلاثة الآخرين، ثم عاد الجميع بعد مدة إلى النشاط ."**وبناء على نزاهتهم وإخلاصهم وثقتهم التي أخذت تتزايد بتزايد إيمانهم اعتبرت الحزب السوري القومي قد تأسس نهائياً**".[16] إن عبارة "**قد تأسس نهائياً**" صحيحة من حيث بدء العمل، لكنها غير دقيقة تماماً في ما يتعلق بالشروح الكاملة للمبادئ، ووضع مواد التشريع التي هي أساس قيام المؤسسات التنظيمية. ويمكن القول إن هذا الأمر شكل التحدي الثاني لسعاده بعد تنقية الحزب من العنصرين

الفاسدين. ذلك أن "عملية التأسيس" ستبقى "ناقصة" ريثما يُستكمل الجانبُ الآخرُ للمبادئ وشروحها... ونقصد بذلك قيام المؤسسات وفق مواد التشريع المناسبة لحركة النهضة القومية الاجتماعية.

ومع ذلك، فإن المؤسسة الوليدة بالعدد القليل الذي اعتنق مبادئها القومية الاجتماعية، هي بداية نشوء الحزب الذي يُعتبر "في طليعة المؤسسات في العالم العربي التي وضعت لها نظرة إنسانية شاملة، وغاية تميز أعضاءها عن سواهم، فيما هي تجمعهم حول فكرة وهدف يساويان وجودهم، ومنظومة قيم إنسانية راقية".[17]

هوامش الفصل السادس

(1) Salim Mujais, "Antoun Saadeh - A Biography". Volume 2, page 38.

(2) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول. صفحة 381.

(3) من ملفات التحقيق في الاعتقال الثاني. جان دايه، "محاكمة أنطون سعاده ـ وثائق التحقيق الرسمي". صفحة 95.

(4) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثاني. صفحة 10.

(5) المرجع السابق، الجزء الأول. صفحة 390.

(6) المرجع السابق، الجزء الحادي عشر. صفحة 286.

(7) المرجع السابق، الجزء الأول. صفحة 478.

(8) المرجع السابق، صفحة 391.

(9) المرجع السابق، الجزء الثالث. صفحة 184.

(10) جبران جريج، "من الجعبة ـ الجزء الأول". صفحة 45.

(11) من ملفات التحقيق في الاعتقال الثاني. جان دايه، "محاكمة أنطون سعاده ـ وثائق التحقيق الرسمي". صفحة 75.

(12) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول. صفحة 192.

(13) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 228.

(14) المرجع السابق، الجزء الثالث. صفحة 184.

(15) المرجع السابق، صفحة 185.

(16) المرجع السابق، صفحة 185.

(17) أسامة عجاج المهتار، "إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية". صفحة 62.

الفصل السابع
الولادة الصعبة للدستور

لم يصدر من مجلة "المجلة" سوى أربعة أعداد، الأخير منها في حزيران سنة 1933. أسباب إغلاقها مالية بالدرجة الأولى[1]، ما أفقد سعاده وسيلة إعلامية ضرورية (ووحيدة) لتربية الأعضاء الأول في الحزب، ولتثقيف المواطنين بالفكر القومي الاجتماعي الجديد. يشرح سعاده جانباً من ظروف توقف المطبوعة بقوله: "**وكانت كثرة عملي في أشغال الحزب الداخلية(...) منعت عليّ متابعة إصدار المجلة، خصوصاً وأن البلاد الأميركية الجنوبية حيث لي العدد الأكبر من المشتركين كانت قد منعت تصدير المال إلى الخارج، وانقطعت عني موارد الإشتراكات**".[2] ولا شك في أن غياب "المجلة" أثر على نشر العقيدة، إذ ينقل جبران جريج عن نعمة ثابت قوله عن تلك الفترة: "لم يكن آنئذ مبادئ مشروحة واضحة ولا مقالات تقوم للحزب بالدعوة وشرح نظرياته القومية".[3]

تمكن سعاده من تجاوز هذه العقبة مؤقتاً من خلال تكثيف الإتصالات الفردية والثنائية في وقت لم يكن عدد

أعضاء الحزب قد تجاوز الخمسة عشر رفيقاً في غضون السنة الأولى. ومع ذلك كان يشعر بأن الحزب، في مرحلة نموه وانتشاره، بحاجة إلى مسألتين ضروريتين: الأولى، شروح معمقة للمبادئ الأساسية والإصلاحية خصوصاً لجهة إيجاد الوجدان القومي وإظهار شخصية الأمة وبناء الإنسان الجديد. والثانية، إنشاء المؤسسات التنظيمية الكفيلة بتوحيد جهود القوميين. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها على مدى ثلاث سنوات من العمل السري (1932 ـ 1935)، فلم يكن بين أيدي القوميين الاجتماعيين أثناء فترة السجن الأولى لسعاده "**غير المبادئ والدستور وخطاب الزعيم في أول حزيران 1935 ونص كتاب خصوصي موجه مني إلى سائل رأيي في العالم العربي (...) وبديهي أن هذه الوسائل كانت ناقصة لا تفي بحاجة عقيدة خطيرة كعقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي**".[4]

يمكننا الجزم بأن الشروح التي كان سعاده يلقيها شفهياً أوفت بحاجة الأعضاء الجدد للثقافة القومية، ولو مرحلياً. والأمر نفسه ينطبق تقريباً على الخطط العملية التنفيذية للتبشير بالمبادئ ونشرها بين المواطنين. لكن التنظيم ووضع التشريعات الداخلية وصياغة المواد الدستورية تطلبت جهداً من نوع مختلف تماماً. نحن لا نملك معلومات مفصلة عن ماهية الترتيبات النظامية في الأحزاب التي أسسها سعاده في البرازيل، غير أننا نستطيع تلمس ملامحها من خلال كتاباته في تلك المرحلة، والتي نستشف منها أفكاره الدستورية المبكرة.

التصور الأساسي الدائم للحزب في تفكير سعاده يقوم على أن "الحزب" يجب أن يكون دولة الأمة المصغرة. ومن هذا المنطلق، عمد إلى وضع الصيغ المناسبة دستورياً وتنظيمياً. كانت هذه الصورة في ذهنه منذ بدء اهتمامه بالعمل الوطني. ولذلك أبدى عناية ملحوظة بدرس أنظمة الحكومات العالمية، خصوصاً أثناء إقامته في البرازيل، فكان يتمعن بتركيباتها كي يتبين حاجة سورية إلى أنظمة مشابهة، أو على الأقل الإستفادة منها لاستكشاف القواعد التنظيمية التي تحتاجها البلاد في مساعيها الإستقلالية. يقول في مقال "مباحث عمرانية ـ نظام الحكومات" بتاريخ أول أيلول سنة 1924: "**ومتى كانت أمة قائمة بنهضة إستقلالية جديدة مثلنا نحن السوريين، كان من أهم واجباتها أن تعنى بدرس نظام الحكومات الراقية الذي يختلف باختلاف الشعوب والبلدان**".[5]

في ذلك المقال، وفي مقالات أخرى متنوعة منها "كيفية الانتخاب في الولايات المتحدة" و"دستور يوغوسلافية" وغيرهما، سعى سعاده إلى فتح أعين السوريين على أنظمة الحكم في العالم والكشف عن حاجة سورية إلى ما يماثلها. ونظراً إلى افتقاد المجتمع السوري لثقافة المؤسسات الوطنية والفكر الدستوري الحديث، كانت كتاباته تدعو السوريين إلى الإستفادة من تجارب الشعوب التي سبقتهم في هذا الشأن. يكتب في مقال "ثورة تشيلي" بتاريخ أول أيلول سنة 1924: "**إن في ثورة تشيلي هذه دروساً كثيرة يُحسن بالسوريين القاطنين في أميركة الجنوبية أن يضعوها موضع الاعتبار لما يمكن استخراجه منها من الفوائد**".[6] وظلت فكرة الحزب ـ

الدولة حاضرة في ذهنه عندما كان يعمل على ترتيب أوضاع الحزب الداخلية في مرحلة التأسيس. ففي رسالة رسمية موجهة إلى "رئيس وأعضاء مجلس العمد" بتاريخ 7 تشرين الأول سنة 1935 (أي قبل انكشاف أمر الحزب) نراه يستخدم مرتين كلمة "الدولة"[7]. وفي المرة الثانية منهما ترد "دولتنا"، ما يؤكد أن المقصود بذلك هو دولة الحزب السوري القومي المصغرة.

ذكرنا في ما سبق أن سعاده أشار تكراراً إلى أن السنتين الأوليين بعد تأسيس الحزب كانتا فترة تجارب واختبارات. يقول في رسالة إلى رفيق الحلبي بتاريخ 10 آب سنة 1934: "**ونحن الآن لا نزال في طور تأسيس واختبار**".[8] وهو لا يقصد بذلك المبادئ الأساسية والإصلاحية التي على أساسها إنتمى الأعضاء الأول، بل الأشكال النظامية التي أشار إليها في خطاب الأول من آذار سنة 1938 بقوله: "**وكنت في سنة 1934 قد وضعت مواد التشريع الأساسي وأوجدت بعض المؤسسات، فنشأت الفروع وتعين عدد من المسؤولين لممارسة الصلاحيات الإدارية في المركز والفروع**".[9] والجدير بالذكر أن الدستور وُضع في 21 تشرين الثاني سنة 1934، وصُنف في 20 كانون الثاني سنة 1937. أما المرحلة الممتدة بين 1932 و1934 فكانت من دون نصوص دستورية ناجزة.

ويتبين لنا من خلال مذكرات ومرويات الرعيل الأول من القوميين أن مواد التشريع الدستورية التي وضعها سعاده شكلت محور الخلافات الأولى في الحزب. في مطلع سنة

1934 دعا سعاده "مجلس المؤسسين" إلى اجتماع للتداول بمسودة "التشريع الأساسي". فأثارت مسألة صلاحيات "القائد العام" المطلقة معارضة عنيفة، خصوصاً من قبل جورج عبد المسيح وجميل صوايا. ومع أن الأكثرية صوتت في نهاية الأمر إلى جانب النص، إلا أن ثلاثة من أصل إثني عشر عضواً قدموا إستقالتهم الفورية من عضوية "اللجنة التأسيسية".[10]

لم يواجه سعاده الصعوبات الخارجية بين المواطنين فحسب، بل كان عليه أن يتعامل مع عقبات داخلية أثارها أعضاء الحزب. يصف جبران جريج جوانب من هذه المعضلة قائلاً: "وعن اللقب الذي يجب أن يتمتع به صاحب الفكرة وعن صلاحياته وعن وضع "الميثاق"، ثمة موضوعان أخذا وقتاً طويلاً في المناقشات. الأول تسمية الزعيم (التي كان البعض غير موافق عليها بالرغم من ورودها في القسم)، والثاني تحديد الحدود الشمالية الشرقية (...). الموضوع الأول إنحل بتسميته "القائد العام" على اعتبار أن للحزب صفة شبه عسكرية. ولكن لم يُعمل به فقد كان أكثر الأعضاء "المؤسسين" ينادونه أستاذ".[11] علماً بأن عبارة "وأؤيد زعيمه وسلطته" أضيفت بعد النقاشات العاصفة سنة 1934.

يتضح من الفقرة أعلاه أن "تحفظات" الرفقاء الأول شملت على وجه التحديد المبدأ الخامس المتعلق بالحدود الجغرافية للأمة السورية، وكذلك صلاحيات مؤسس النهضة وعلاقته بأعضاء الحزب. ونحن نعرف من خلال الأشخاص الذين عاصروا سعاده، سواء إنتموا إلى الحزب أو ظلوا

خارجه، أن سعاده بذل جهداً كبيراً وقضى وقتاً طويلاً في شروح مسهبة للفكرة القومية الاجتماعية. لكن لسوء الحظ، لم تجد تلك الحوارات والنقاشات طريقها إلى التسجيل والنشر إلا في وقت لاحق (على سبيل المثال، الطبعة الأولى من شرح المبادئ بقلم الزعيم صدرت سنة 1936).

في ظل خلو المجتمع السوري "**من مؤسسات قومية بالمعنى الصحيح، ومن تقاليد قومية عامة يصح الإستناد إليها**"[12]، جابه سعاده صعوبة بالغة في تربية الأعضاء الأول على أهمية الإلتزام بالأعمال النظامية. إعترض بعض القوميين على لقب "الزعيم"، في حين رفض آخرون الإقرار له بصلاحيات "واسعة" مصرين على وضع قيود على سلطاته، إذ نصت المادة الرابعة من الدستور القديم على أن "لا يتخذ الزعيم أي قرار هام إلا في مجلس العمد".[13] لكن الأحداث الحزبية اللاحقة كشفت أن حرص غالبية هؤلاء الأعضاء على "الممارسة الديموقراطية" داخل الحزب كان يُخفي نزعات فردية كامنة من رواسب مجتمع الإنحطاط والفساد، وعاجزة عن تقبل الترتيبات النظامية. وهذه مشكلة ظلت تعيق سير العمل الحزبي، وتعرقل خطط سعاده ومشاريعه طيلة حياته.

السؤال الذي طرحه سعاده على أبناء الجالية السورية في البرازيل، من خلال رسالته إليهم بمناسبة وفاة والده سنة 1934، يؤكد لنا خشيته المبكرة من عدم قدرة السوريين إجمالاً على الإلتزام بالعمل النظامي المنضبط. "**هل نحن جماعة تعرف أهمية الأعمال النظامية؟**" هو من نوع "تساؤل العارف"، ويُظهر عمق الإشكالات النظامية المناقبية التي

جعلت سعاده يلجأ إلى التدرج في أساليب المعالجة الداخلية. ولذلك وافق في المرحلة الأولى على إطلاق لقب "المؤسسين" على المنتمين الأول الإثني عشر، وأن يتألف منهم مجلس سُمي "مجلس المؤسسين".[14] فقد كان على قناعة راسخة بأن التربية القومية الصحيحة ستؤدي، عاجلاً أم آجلاً، إلى نشوء روح جديدة تقوي حيوية الأعضاء وتدربهم على قيم الإنضباط والنظام.

غير أن العملية التربوية لوحدها لا تكفي، فهي تحتاج إلى أطر تنظيمية تدرب الأعضاء على فضائل النظام والإنضباط، وتكفل تحقيق وحدة الإتجاه. ولذلك أنجز سعاده في سنة 1934 الصيغة الأولية من مواد التشريع الأساسية وأوجد المؤسسات التنظيمية. يقول في التحقيق بعد الإعتقال الثاني سنة 1936: "**عند ذلك عمدتُ إلى إنشاء الحزب بصورة عملية بعد أن وضعتُ قوانينه وأسسته في صيغة خطية. وكان أول ما كتبته بهذا الصدد هو الدستور والقانون الداخلي موجزين**".[15] أما قبرصي فيوضح أنه: "كان الدستور عندما بدأ سعاده التبشير مكتوباً على دفتر عادي بخط أحد الرفقاء القدامى فيكتور أسعد، وكانت العناية به شديدة".[16] ومع ذلك لم يكن الدستور مكتملاً، فقد أدخلت عليه تعديلات عدة قبل تصنيفه النهائي في 20 كانون الثاني سنة 1937. ومن الإضافات مثلاً، المقدمة التي تحدد العلاقة التعاقدية بين المؤسس والمقبلين على الدعوة. وكذلك لم تكن موجودة المادة الرابعة التي تنص على أن الزعيم هو قائد قوات الحزب الأعلى ومصدر السلطتين التشريعية والتنفيذية.[17]

كان إيمان سعاده بالديموقراطية، كنظام لإدارة المنظمة القومية، مطلقاً منذ البداية. لكن تحقيقها يتطلب شعباً بلغ مرتبة متقدمة من الرقي في الفهم السياسي، ومجتمعاً وعى هويته القومية وترسخت في صفوفه مظاهر الوجدان القومي الواضح وأدرك من دون أي لبس طبيعة مصالحه القومية العليا. يقول في كتاب "نشوء الأمم": "**والحقيقة أننا نجد جذور الديموقراطية الحديثة في سلطة الفرد التي أنقذت السيادة من مطامح الأقلية الممتازة**".[18] ومع أن هذه العبارة تنطبق على مجتمعات تاريخية مختلفة، إلا أن باستطاعتنا سحبها على الحزب لتشمل ما كانت عليه "**الأقلية الممتازة**" التي اختارها سعاده للبدء في مهمته النهضوية الشاملة، والتي لم تتمكن من التخلص كلياً من مطامحها الفردية ما تطلب وجود "**سلطة الفرد التي أنقذت السيادة**"!

بين 1932 و1935، وبدلاً من توجيه الجهود إلى خارج الحزب السري حيث الناس يتطلعون لمن يُنقذهم من براثن الانحطاط والفوضى، نجد أن جزءاً كبيراً من عناية سعاده "وُظف" لاقناع "المؤسسين الأول" بضرورة أن "يُعطى" الزعيم صلاحيات واسعة، ليست مطلقة عملياً لأنها مرتبطة أولاً وأخيراً بالقضية القومية ومصلحة الأمة. وبسبب غياب التقاليد السياسية القومية، وعدم وجود مؤسسات قومية في المجتمع السوري، كان سعاده يخشى تسلل العناصر الفاسدة إلى الحزب الجديد. وهو اختبر مثل هذه النزعات في البرازيل مع أحزاب وجمعيات أسسها أو شارك فيها، كما لاحظنا سابقاً. ويكشف جورج عبد المسيح جانباً من هذه المعضلة المبكرة بقوله: "وكانت السياسة والأهداف السياسية الدافع

الأقوى لانخراطهم (أي الأعضاء الأول) في الحزب".[19]

وتُظهر لنا مذكرات الرعيل الأول كم كان سعاده رحب الصدر في تقبل آراء ومواقف المقبلين الجدد على الحزب. لم يترك أية وسيلة إلا واستخدمها لتوسيع مدارك "القوميين"، ومحاورتهم في ما أغلق فهمه عليهم، بل والقبول بهم "مؤسسين" للحزب وتشكيل "مجلس مؤسسين" منهم! حتى أنه "تباحث" مع المحامي عزيز الهاشم في إمكان دمج "حزب الاستقلال الجمهوري" الذي يرأسه الهاشم بالحزب السوري القومي.[20]. وجدير بالذكر أن سعاده كلف المحامي الهاشم بالدفاع عنه في المحكمة بعد الاعتقال الثاني[21]، وإن كانت العلاقة معه تدهورت تماماً في وقت لاحق.

صحيح أن القضية السورية القومية لم تؤسس على الشك بل على اليقين، لكن الصحيح أيضاً أن المرحلة المبكرة من نشوء الحزب كانت مليئة بمواقف الشك والتردد والتراجع التي كشفتها مماحكات بعض الأعضاء في ما يتعلق بسلطات الزعامة. ولعل ما أورده عبدالله قبرصي في مذكراته عن تلك الفترة يعطينا جانباً من معاناة سعاده مع "المسؤولين القوميين". يقول عن لجنة الإذاعة والنشر التي ترأسها بوصفه عميداً للإذاعة: "وعوضاً عن أن تتمحور آراؤها وأفكارها حول ما قدمت (أي خطة العميد)، راح أعضاؤها وكلهم من الجامعيين والمفكرين يطرحون عليّ الأسئلة المحرجة عن صلاحيات الزعيم وعن دستور الحزب".[22] وقد عصفت المماحكات بهذ اللجنة "النخبوية" إلى حد إضطرار الزعيم للتدخل شخصياً واتخاذ قرار بحلها وتوزيع أعضائها على

مسؤوليات أخرى بعد أن أعطاهم "**درساً وافياً**".[23]

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المحكمة التي شكلها الزعيم لمحاكمة شارل سعد ومجموعته، قبل انكشاف الحزب، تعلقت في جزء أساسي منها بموضوع "الصلاحيات المطلقة للقائد الزعيم". وظلت هذه الصلاحيات تثير النقاشات والمشاكل ما دفع قبرصي إلى أن يقترح على سعاده إضافة عبارة احترازية هي "أن الزعيم لا يتخذ أي قرار هام إلا في مجلس العمد".[24].

وفي واحدة من أولى الوثائق التوجيهية الداخلية التي وصلت إلينا[25]، يكتب سعاده إلى رفيق الحلبي بتاريخ 10 آب سنة 1934 رسالة رسمية يتناول فيها بعض الصعوبات التربوية التي يواجهها مع الأعضاء الجدد. وهو يستخدم لقب "**القائد العام**"، ويؤكد على أنه "**لا يقر تدبيراً إلا لضرورة وسبب جوهري**"، ويشير إلى "**أن الحزم ضرورة قصوى لمثل المسؤولية التي نتحملها**". ثم يكشف أن المسألة التي يعالجها ليست شخصية بل نظامية، مشدداً على "**أن تكون أعمالنا نظامية، وأن تنزه أعمالنا وكتلتنا عن كل ما قد يجلب التنافس الشخصي (...) فإن التنافس الشخصي يصبح آفة قاضية**".

ولم تقتصر العقبات الداخلية على الأعضاء فقط، إنما استشرت في مجلس العمد الذي كان أعلى سلطة تنفيذية في الحزب آنذاك. ومع أن رسالة سعاده إلى المجلس[26] تعود إلى حزيران سنة 1936، إلا أن ما ورد فيها يمكن أن ينطبق كذلك على المراحل السابقة. يقول في معرض انتقاده للإهمال الواقع فيه المجلس "**إنه إذا ظلت الحال على هذا**

المنوال، فإما أن يصبح مصير الحزب في قبضة القدر وحده، وإما أن تحوجني المسؤولية الملقاة عليّ إلى اتخاذ تدابير خطيرة حاسمة بشأن مجلس العمد والعمد أنفسهم". فإذا كانت هذه هي الأجواء السائدة في مجلس العمد بعد انكشاف الحزب، وبعد الموقف البطولي الذي وقفه سعاده أمام المحكمة الفرنسية... فيمكننا أن نتخيل كيف كانت الأمور تسير في مرحلة العمل السري وقبل استكمال إنشاء المؤسسات الدستورية الحزبية!

بعد سنتين تقريباً من معاناة التثقيف والتربية والتأسيس، وهي الفترة التي شهدت مماحكات داخلية وشكوكاً من جهة بعض الأعضاء واقتناعاً وإيماناً طوباوياً من جهة أعضاء آخرين، تأكدت لسعاده ضرورة الإنتقال إلى مستوى آخر من العمل الحزبي. لقد ترسخت المبادئ وشروحها لدى غالبية أعضاء الحزب، وتمت الموافقة على مواد التشريع الدستورية وإن بصعوبة بالغة كما شاهدنا أعلاه، لذلك لم يبق إلا تثبيت مركزية القيادة الحزبية وعلى رأسها الزعيم المؤسس بصلاحيات مطلقة.

إن إصرار سعاده على مبدأ الصلاحيات المطلقة للزعيم لم يكن ناجماً عن رغبة شخصية في السيطرة على قرار الحزب ومقدراته بقدر ما هو ناتج عن فهمه لأبعاد الخلل المناقبي في نفوس السوريين عموماً. يقول في مقال "سلطة الزعيم" ("الزوبعة"، أول آذار سنة 1941): "**وإذا درسنا جيداً تاريخ الحزب السوري القومي ودققنا في الاختبارات التي مرّت به وجدنا هذه السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد**

لسلامة هذا الحزب الذي يمثل نهضة الأمة السورية. ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكك الحزب، وإن بقيت العقيدة، من جراء المناورات التي قام بها أفراد جلبوا معهم إلى داخل الحزب أمراض النفسية الانحطاطية وحاولوا أن يحولوا الحزب إلى ميدان تتبارى فيه منافعهم الخصوصية وأهواؤهم. والفضل في إبطال هذه المناورات يعود إلى مقدرة الزعيم وإلى سلطته غير المحدودة التي زادت إيمان مجموع الحزب به، بدلاً من إضعافه".[27]

وهكذا يظهر لنا من خلال الفصول السابقة أن "الأزمات" الداخلية في الحزب الوليد أختصرت في كونها أزمة مؤسسات وأزمة مناقب وليس أزمة فكر. فباستثناء التحفظ على مسألة الحدود الشرقية للوطن السوري من ناحية العراق، تولدت لدى الأعضاء قناعة تامة بالمبادئ الأساسية والإصلاحية. وحدها طبيعة صلاحيات الزعيم وسلطته ظلت تعكر وحدة الاتجاه بين المسؤولين القوميين. ونحن نعتقد بأن الأجواء المحيطة بإقرار المواد المتعلقة بتلك الصلاحيات هي التي دفعت سعاده إلى سلسلة من الخطوات المدروسة بعناية، مستهدفاً وضع حد نهائي لمسألتين حيويتين بالنسبة إلى استمرار الحزب ونموه: أولاً، ترسيخ مبدأ الثقة في العلاقات بين الأعضاء أنفسهم وبينهم وبين القيادة. ثانياً، تنزيه منصب الزعامة وتثبيت مبدأ الإيمان بها مرجعية فكرية وسياسية وتشريعية.

هوامش الفصل السابع

(1) جبران جريج، "من الجعبة ـ الجزء الأول". صفحة 66.

(2) من ملفات التحقيق في الاعتقال الثاني. جان دايه، "محاكمة أنطون سعاده ـ وثائق التحقيق الرسمي". صفحة 75.

(3) جريج، مرجع سابق. صفحة 114.

(4) "الأعمال الكاملة"، الجزء الحادي عشر. صفحة 99.

(5) المرجع السابق، الجزء الأول. صفحة 124.

(6) المرجع السابق، صفحة 136.

(7) دايه، مرجع سابق. صفحة 139.

(8) "الأعمال الكاملة"، الجزء التاسع. صفحة 6.

(9) المرجع السابق، الجزء الثالث. صفحة 185.

(10) جريج، مرجع سابق. صفحة 144.

(11) المرجع السابق. صفحة 91.

(12) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثامن. صفحة 226.

(13) عبدالله قبرصي، "الدستور القومي الاجتماعي". محاضرة ألقيت في المعهد الحزبي التابع للحزب السوري القومي الاجتماعي بتاريخ نيسان 1977.

(14) جريج، مرجع سابق. صفحة 91.

(15) دايه، مرجع سابق. صفحة 73.

(16) قبرصي، مرجع سابق.

(17) المرجع السابق.

(18) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثالث. صفحة 90.

(19) جورج عبد المسيح، "أيام قومية من عماطور إلى الإسكندرون". صفحة 31.

(20) جريج، مرجع سابق. صفحة 387.

(21) دايه، مرجع سابق. صفحة 151.

(22) جريج، مرجع سابق. صفحة 208.

(23) "الأعمال الكاملة"، الجزء السادس. صفحة 157.

(24) قبرصي، "عبدالله قبرصي يتذكر ـ الجزء الأول". صفحة 50.

(25) "الأعمال الكاملة"، الجزء التاسع. صفحة 4.

(26) دايه، مرجع سابق. صفحة 139.

(27) "الأعمال الكاملة"، الجزء الرابع. صفحة 163.

الفصل الثامن
ترسيخ مفهوم الزعامة

المعروف أن سنة 1935 هي سنة انكشاف الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي قاده سعاده في الوطن وفي المهجر، والذي أعطاه حياته في خاتمة المطاف صبيحة الثامن من تموز سنة 1949. خمس سنوات مرّت منذ عودته إلى الوطن، بين دمشق وبيروت، أمضى القسم الأول منها مستكشفاً الإمكانات الوطنية ودارساً الأوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية. وقضى القسم الثاني في التربية والتثقيف والتبشير بالمبادئ الجديدة، منخرطاً في تجارب واختبارات مريرة لتأسيس الحزب في صفوف "الطبقة المتنورة" من السوريين.

فما هي الصورة التي تكوّنت لدى سعاده بعد تلك التجارب والاختبارات التي كان بعضها قاسياً وفاشلاً؟ وما طبيعة الخطة التي قرر اعتمادها لترسيخ مفهموم الحزب بين القوميين أنفسهم أولاً، وبين المواطنين على نطاق واسع ثانياً؟

قبل محاولة الإجابة على هذين السؤالين المترابطين، سيكون من المفيد عرض رؤية سعاده إلى واقع المجتمع السوري كما عايشه في الكيانين اللبناني والشامي في تلك

الفترة. يقول في خطاب الأول من آذار سنة 1938: "**إن فقد الثقة بالنفس وبقوى الأمة وإمكانياتها السياسية والاقتصادية، والاستسلام للخنوع، أنشأ طائفة من المأجورين للإرادات الأجنبية القريبة والبعيدة يغذون الأفكار بسموم فقدان الثقة بمستقبل الأمة والتسليم للأعمال الخارجية والحالة الراهنة. فإذا النفسية العامة في الأمة نفسية خوف وجبن وتهيب وتهرب وترجرج في المناقب والأخلاق. ومن صفات هذه النفسية العامة الخداع والكذب والرياء والهزؤ والسخرية والاحتيال والنميمة والوشاية والخيانة وبلوغ الأغراض الأنانية، ولو كان عن طريق الضرر بالقريب وعضو المجتمع**".[1] ومن الطبيعي أن الأعضاء الأول في الحزب جاءوا من هذه الأوساط المريضة، وظلّ بعضهم متشبثاً بعوامل الفساد المتجذرة من بقايا الحياة العتيقة.

أدرك سعاده بثاقب نظره أن المماحكات التي عانى منها كثيراً خلال السنتين الأوليين بعد التأسيس (1932 ـ 1934) لا يمكن أن تزول مرّة وإلى الأبد، إلا إذا تعامل معها بإسلوب حاسم ينهي جدلاً عقيماً يكاد يعرقل العمل النهضوي في صميم المجتمع. يُضاف إلى ذلك أن توسع نشاط الحزب وانتشاره في مناطق متباعدة باتا يتطلبان ظهوراً علنياً للزعيم الذي كان قسم كبير من القوميين يسمع عنه لكن لا يعرفه شخصياً. كما أن هذا التوسع حمل في طياته خطر انكشاف المنظمة السرية التي بدأت أخبارها تتسرب شيئاً فشيئاً إلى دوائر الأمن التابعة لسلطات الاستعمار الفرنسي.

وهناك أيضاً ناحية أخرى يوضحها أسامة عجاج المهتار

في الفقرة التالية: "بنى سعاده أولاً أساساً إدارياً متيناً لحزب عقيدي سري ضمّ أكثر من ألف شاب وشابة من مختلف المناطق والأديان والمذاهب والمستويات الاجتماعية. كان يدرك أن هذا العدد غير كاف ليستطيع الزعم أنه يتكلم باسم الأمة جمعاء. لكنه كان على ثقة من التفاف السوريين حول حركة عامة ترد كرامتهم وترفع مستوى حياتهم، وتقضي على الفساد الداخلي الذي يمتص حيويتهم، وتدفع الأخطار الخارجية التي تهددهم. لقد أدرك أن في شعبه معدناً خالصاً بحاجة إلى مغناطيس قوي ليجذبه، ولكنه كان بحاجة إلى مواجهة كبيرة لوضع هذا الإدراك موضع الاختبار. هذه المواجهة سوف تقع يوم انكشاف الحزب، يوم المواجهة الأولى مع الفرنسيين".[2]

ولهذه الاعتبارات كلها، كانت سنة 1935 الحد الفاصل بين مرحلتين، أو كما وصفها جبران جريج بأنها "ميلاد الحزب في الجماعة القومية بعد أن كنا نشهد ميلاده في الأفراد"[3]. بدأها سعاده في الأول من آذار بـ "قسم الزعامة"، أتبعه في حزيران بالخطاب المنهجي الأول الذي عُرف أيضاً بـ "خطاب التأسيس" ويمكن أن نطلق عليه كذلك إسم "خطاب الزعامة"، ثم أختتمت السنة بانكشاف أمر الحزب في 16 تشرين الثاني لتظهر في المحاكمة "بطولة الزعامة". ولا يُخفى على المتمعن المدقق ملاحظة الخطة التي سار عليها سعاده. الدعوة الإفرادية السرية حققت أقصى ما تستطيع في ظروف العمل الخفي، وأعضاء الحزب الموزعون في المناطق تجمعهم المبادئ الأولية وبعض التشريعات الدستورية التي ظل قسم من القوميين متردداً

حيالها. فكان من الطبيعي أن ينتقل هؤلاء بصورة دراماتيكية من الدعوة الإفرادية إلى روح الجماعة ذات الإتجاه الواحد، يقودها "زعيم" هو باعث النهضة ومؤسس الحزب والقائد ذو الصلاحيات المطلقة... لكن المقيدة في آن واحد.

لم يكن مفهوم "الزعامة" أو منصب "الزعيم" مستجداً في تفكير سعاده وأدبياته، إذ أورده مرات عدة قبل تأسيس الحزب السوري القومي. وجاءت أوضح إشارة إليه في رسالته بتاريخ 6 كانون الثاني 1927 إلى سليمان عزام مسؤول حزب "سورية الجديدة" في أميركا الشمالية عارضاً التعاون معهم بصفته "**رئيس حزب الأحرار السوريين وزعيمه**".[4] ومع أننا لا نجد في كتابات سعاده خلال مرحلته البرازيلية الأولى صفات محددة للزعامة وصلاحياتها، إلا أننا نقترح التوقف عند مقطع من محاضرة بعنوان "حياتنا الوطنية" ألقاها الدكتور خليل سعاده في مدينة ريو دي جانيرو بتاريخ 5 حزيران 1921، ونشرها في "الجريدة" بتاريخ 18 حزيران 1921[5]، يقول فيه: " ...إن للزعامة شروطاً غير كبر الجاه وتصدر المجالس، بل يجب أن يكون الزعيم ذا عقل سام واختبار كبير، بصيراً بعواقب الأمور، دارساً تواريخ الأمم والشعوب، عارفاً النتائج من أسبابها، مشهوراً بالإخلاص لوطنه، بعيداً عن التأثير الخارجي، بعيداً عن كل رشوة، بعيداً عن التسرع في الأعمال الوطنية، كما أنه يجب أن يكون في الوقت نفسه بعيداً عن الإبطاء في موقف السرعة". ومن الأكيد أن سعاده الإبن كان مطلعاً على هذا النص.

نبدأ أولاً بـ "قسم الزعامة". في الأول من آذار سنة 1935

قرّر عدد من الرفقاء التوجه إلى كوخ سعاده في منطقة رأس بيروت لتقديم باقة ورد له بمناسبة عيد ميلاده، فكان رده على تلك البادرة المعبّرة عن روحية الجماعة الوقوف أمامهم وإداء القسم. ونحن لا يمكننا التصور أن سعاده ارتجل مثل هذا النص القومي الحقوقي التاريخي بفعل اهتزاز عواطفه تجاه رفقائه المخلصين! وإنما هو فعل ذلك بعد إمعان الفكر خصوصاً أن مسألة "صلاحيات الزعيم" ظلت عقبة كأداء لدى قسم كبير من المسؤولين المركزيين. ولا شك في أنه أراد بهذا القسم أن يضع الجميع أمام مسؤولياتهم القومية، تماماً كما بادر هو إلى وضع نفسه أمام مسؤولياته القومية من خلال إطار تعاقدي حقوقي واضح:

"أنا أنطون سعاده، أقسم بشرفي وحقيقتي ومعتقدي، على أني أقف نفسي على أمتي السورية ووطني سورية، عاملاً لحياتهما ورقيهما، وعلى أن أكون أميناً للمبادئ التي وضعتها وأصبحت تكوّن قضية الحزب السوري القومي، ولغاية الحزب وأهدافه، وأن أتولى زعامة الحزب السوري القومي وأستعمل سلطة الزعامة وقوتها وصلاحياتها في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيته، وأن لا أستعمل سلطة الزعامة إلا من أجل القضية القومية ومصلحة الأمة. على كل هذا أقسم أنا أنطون سعاده".[6]

المقطع الأول من نص القسم يأتي في السياق الطبيعي من حيث الأمانة للمبادئ والتضحية في سبيل الأمة والوطن. لكن عبارة "**أقف نفسي**" تعطيه أبعاداً أعمق وأشمل. ذلك أن كلمة أقف "خطيرة الأهمية لأن الوقف يعني إنهاء ملكيته على

نفسه وإعطاء ملكية التصرف بها للأمة السورية، لمصلحتها وعزها، ولقضيتها التي تتجسد في النهضة".[7] وهذا بالضبط ما قصده سعاده عندما أكد في رسالته السابعة عشرة إلى إدفيك جريديني[8] أنه "**مسؤول عن نهضة أمتي التي تقيدت تجاهها بهذا القسم...**"، واضعاً خطاً أسود للتشديد تحت عبارة "**أقف نفسي**".

النص السابق يمهد للمقطع الثاني الذي هو جوهر الموضوع من الناحية الدستورية، ذلك أن تولي منصب الزعامة يعني إمتلاك الصلاحيات ما يتطلب إطاراً حقوقياً وأخلاقياً يُحدد طبيعة هذه الصلاحيات وطريقة استخدامها. من هنا جاءت عبارة "**وأستعمل سلطة الزعامة وقوتها وصلاحياتها في سبيل فلاح الحزب وتحقيق قضيته**". هذا من المنطلق الإيجابي، لكن تتمة العبارة "**وأن لا أستعمل سلطة الزعامة إلا من أجل القضية القومية ومصلحة الأمة**" هي التي وضعت الشروط الاحترازية وسدت أبواب التخوفات والذرائع لدى المترددين في قبول مبدأ الزعامة لدى سعاده، وهي التي رسّخت ـ في الوقت نفسه ـ ما أسميه مفهوم "التعاقد المثالي" أو "التعاقد الرسولي" بين الزعيم والمقبلين على الدعوة، حاضراً ومستقبلاً.

أنهى "قسم الزعامة" جدلاً حقوقياً عبثياً حول صلاحيات الزعيم وسلطاته، فأصبح الطريق ممهداً للقيام بالخطوة التالية، وهي الدعوة إلى اجتماع عام لجميع أعضاء الحزب. أراد سعاده من هذا الاجتماع تحقيق أهداف عدة في آن واحد. أولاً: كان عدد الأعضاء قد تجاوز ثلاث مائة رفيق

منتشرين في مناطق عدة من لبنان والشام[9]، الغالبية العظمى سمعت بالزعيم من غير أن تلتقيه فأصبح من المُلح عقد مثل هذا اللقاء. ثانياً: المبادئ التي هي قواعد لانطلاق الفكر لا تغني عن إعلان موقف سياسي مما يجري على ساحة الوطن. ثالثاً: تعزيز صورة الزعيم على مستويات عدة، خصوصاً مستوى القيادة العليا ذات الصلاحيات المنصوص عنها في "قسم الزعامة".

لا شك في أن سعاده أشرف على ترتيب هذا الاجتماع بأدق تفاصيله. فكان المشهد أشبه بإخراج مسرحي المقصود منه إحاطة إطلالة الزعيم الرسمية الأولى بهالة من القوة والنظام والسلطة. إكتمل الحضور، فأعطي الإيعاز بالتهيؤ ليدخل الزعيم باللباس الرسمي المميز وخلفه عدد من المسؤولين المركزيين. ألقى خطابه الشامل أمام أعين شاخصة وعقول متفتحة، ثم غادر على الفور بعد إعطاء الإيعاز من دون أن يختلط بأحد من الحضور. ينقل عبدالله قبرصي[10] عن سعاده قوله في تفسير سبب هذا الترتيب النظامي الدقيق: "الزعيم يدخل على الرفقاء وعلى مقابليه، ولا يدخلون هم عليه. القاعدة هي المحافظة على هيبة السلطة. أما لماذا غادرت باكراً؟ فلكي تبقى صورة الزعيم هي الراسخة في قلوب القوميين(...) كان عليّ أن أبدأ تقليداً جديداً للاجتماعات العامة الرسمية. الزعيم أب وصديق ورفيق لكل القوميين الاجتماعيين، ولكن في المجالس والاجتماعات الرسمية يجب أن يتصرف كقائدهم".

في الخطاب الذي ألقاه، وكان مكتوباً، وفي الإخراج

المنظم للاجتماع بتفاصيله الكاملة... أراد سعاده أن يتابع البناء على ما أنجزه في "قسم الزعامة"، أي الانتقال إلى روحية الجماعة المتراصة الصفوف التي يقودها زعيم ينشئ نهضة قومية شاملة. وقد وصف ذلك الخطاب في "المحاضرة الثانية" سنة 1948 بقوله: "**هذا الخطاب يُعد الخطاب المنهاجي الأول الذي لفظ في الحزب السوري القومي الاجتماعي وهو يكون، في الصحيح، أول شرح لمبادئ الحزب وكيفية فهمها وتطبيقها في حياتنا. وبديهي أن قصدنا نحن بالمبادئ ليس فقط صوراً جميلة على الورق، بل قوة فاعلة في الحياة ـ حياة تعمل وتنشئ وترتقي وتحقق وتخلق**".[11] ولن نتناول هنا مضمون "خطاب التأسيس" أو ما نسميه "خطاب الزعامة"، فهو مشهور على نطاق واسع، وإنما نكتفي بإظهار الأثر النفسي التنظيمي الذي أحدثه في الحاضرين. يعبّر جريج في المقطع التالي عن انطباعات القيادات الحزبية كلها آنذاك: "زاد تقديري للزعيم بعد هذا الخطاب الذي لم يترك شاردة أو واردة إلا وتناولها. بحث كل المواضيع من اجتماعية، سياسية أو دعائية، إن على الصعيد القومي أو الصعيد الأجنبي، أو من جهة المفهوم الحزبي لها ولمبادئ الحزب نفسه وتركيبه".[12] أما إلياس جرجي قنيزح[13] فلم يتجاوز تحفظاته على فكرة "إطاعة الزعيم" في نص قسم الانتماء إلا بعد إطلاعه على الخطاب المنهجي الأول.

في أعقاب "قسم الزعامة" (آذار 1935) و"خطاب الزعامة" (حزيران 1935)، بات سعاده مطمئناً إلى أن جسم الحزب قادر على تحمل تبعات أية مواجهة قد تفرضها عليه

السلطات الفرنسية الاستعمارية فيما لو تمكنت من كشفه. يقول في خطاب الأول من آذار سنة 1938: "**بين أواسط سنة 1935 وأواخرها، نما الحزب نمواً كبيراً واتسع نطاقه، ولم يعد في الإمكان إخفاء هذه الحركة الفكرية الاجتماعية السياسية العظيمة. فأخذ أمر الحزب يظهر شيئاً فشيئاً وصار بعض الناس يتهامسون في البيوت والأوساط العائلية عن هذه الظاهرة الجديدة**".[14] والواقع أن الوثائق التي تم الكشف عنها في السنوات القليلة الماضية [15] تظهر أن الأجهزة الأمنية كانت على معرفة بوجود الحزب قبل انكشافه، بل حصلت على تقارير خاصة كتبها أحد المندسين من بينها نص "مقابلة" مع الزعيم نفسه!!

وهكذا جاء دور الخطوة الأخيرة في ثلاثية التأسيس الناجز للحزب السوري القومي. فقد دخل سعاده في سباق مع الزمن بين ترتيب خطوة داخلية تؤدي إلى انكشاف أمر الحزب حسب خطة معدة سلفاً، وبين تحرك السلطات الأمنية الفرنسية لاعتقال الزعيم والقيادات الحزبية بفعل وشاية من خائن. "كانت الخطة أن يُعقد اجتماع في أحد البيوت قرب أحد مخافر الأمن في المدينة، ولهذا السبب أختار بيتاً من بيوت طريق الشام حيث يوجد مخفر قريب جداً منه. يُرسل أحد القوميين إلى المخفر يخبر المفوض، رئيس المخفر، بوجود اجتماع معقود حالياً هو لحزب سري في البيت كذا وكذا... فيرسل المفوض من مخفره أو ترسل دائرة الأمن العام بعد مخابرتها من يقبض على المجتمعين بالجرم المشهود. وهكذا يعلن بدء المعركة العلنية بين النهضة القومية الاجتماعية وسلطات الانتداب وحلفائها".[16]

وبغض النظر عمّن قام بالخطوة الأولى في الكشف عن الحزب، فقد خرجت إلى النور معركة علنية لم تتوقف قط بين النهضة والتخلف، بين الفكر القومي الاجتماعي ونزعات التجزئة والتشرذم. ولم تكن معركة سهلة على الإطلاق، خصوصاً بالنسبة إلى أعضاء الحزب الذين ما كانوا قد تمرسوا بعد بمتطلبات الصراع القومي. توقع سعاده أن يترجرج بعض المسؤولين الحزبيين أمام رجال الأمن، إذ "**كان هذا الاعتقال أول تجربة تتعرض لها قوة المبادئ والمناقب والأخلاق الجديدة. وقد وقع معاونيّ، أعضاء مجلس العمد وبعض الموظفين المساعدين، في حيص بيص. وكانوا في حيرة من أمرهم حينما مررتُ بهم نحو الساعة الثانية بعد الظهر إلى الغرفة المجاورة لغرفتهم في دائرة الأمن العام، وواحد منهم تنكر لي وتظاهر بأنه لا يعرفني (...) والشئ الوحيد الذي تمكنت من أن أقوله لهم في مروري هو أني قد اعترفت بوجود الحزب السوري القومي وأنه يجب على كل واحد أن يعترف بالوظيفة والمسؤولية اللتين يحملهما ويترك الباقي من الأمر لي**".[17]

لكن الشئ الذي لم يتوقعه سعاده، ولم يكن ليقبله، هو تهرب بعض مساعديه من تحمل مسؤولياتهم وإلقاء اللوم والتبعات كلها عليه وحده: "**إن موقفي في دائرة الأمن العام وعند قاضي التحقيق الفرنسي كان مشجعاً لرفقائي. ولكن بعد الليلة الأولى في السجن عاد إليهم الشك والتفكير في المصير المبهم فأخذوا ينحون عليّ باللائمة ويعدّون اتساع نطاق الحزب من الأغلاط التي أؤاخذ عليها، وأني لو أصغيت لرأي بعضهم وعملت به لما كان الحزب بلغ هذا الاتساع، ولما**

كان انكشف أمره ولما كنا دخلنا السجن. فلما تضايقت من هذا الملام حملت وسادتي وانتحيت ناحية وقعدت لوحدي، فشعر رئيس مجلس العمد بالغلط الذي ارتكبوه، وجاء إليّ واعتذر عن الضعف الذي أظهروه".[18]

كانت موجة الاعتقالات الأولى المحك القاسي لعدد كبير من القوميين، خصوصاً المسؤولين منهم. بعضهم تراجع، وبعضهم عاودته شكوك الضعف والانهزامية، وبعضهم وجّه اللوم إلى سعاده بأنه لم يحسب حساباً للعواقب المتوقعة... لكن الزعيم صمد أمام التحدي الكبير، وشكل قدوة في جرأته وكبريائه أمام القضاة الفرنسيين. وقد وصف سعاده في خطاب الأول من آذار سنة 1938 تلك المرحلة بقوله: "**وما خروج الحزب السوري القومي سليماً من هذه الاختبارات العظيمة والتجارب الشديدة سوى الدليل القاطع على قوته التي لا تُغلب، وعلى جدارته بالبقاء وعلى تفوقه في النزاع العنيف بينه وبين القوات العاملة على قتل الأمة في سبيل حياتها هي**".[19] لقد تجاوز الحزب امتحانه العسير بجدارة، وتعزز يقين سعاده من أن المؤسسة التي أطلقها سراً في خريف سنة 1932 ستنشر جذورها في تراب الوطن السوري بغض النظر عن كل الصعوبات المحتملة، خصوصاً في صراع الحياة أو الموت بين عوامل النهضة القومية الجديدة من جهة وعناصر الفساد والرجعة والانحطاط من جهة أخرى.

تتضمن أدبيات الحزب ومروياته التاريخية تفاصيل وافية عن مجريات المحاكمة في 23 كانون الثاني سنة 1936. ما يهم موضوعنا الآن هو الوصف الذي أوردته جريدة "الزوبعة" في

عـددهـا رقـم 74 تـاريـخ 15 آذار سـنـة 1944 بـقـلـم سـعـاده نفسه[20]: "**كان يوماً عظيماً بزغت شمسه على محيط إلتفّ فيه الشك على اليقين حتى إذا بلغت الشمس رابعة النهار إضمحل الشك، وتأيّد اليقين، وزهق الباطل وفاز الحق فوزه المبين. وفي هذا اليوم وقف شاب اسمه أنطون سعاده ليقارع قوات عظيمة ويقاتل وحيداً الظلم والظالمين، وليلقي على أتباعه دروساً في الإقدام والبطولة الخالدة، ولينزع الخوف من قلوب شعبه ويعيد إليه ثقته بنفسه وبحقه في الحياة المثلى والخلود**".

الضعف المؤقت الذي أظهره بعض المسؤولين كان مجرد ردة فعل على صدمة الاعتقال وغياب التجربة النضالية، إذ سرعان ما تفولذت إرادة القوميين المعتقلين مدعومة بـ "بطولة الزعامة" سواء في الاعتقال أو التحقيق أو المحاكمة نفسها. وبهذا الموقف البطولي الجريء اكتملت مواصفات الزعامة عند سعاده، وأنجزت عملية تأسيس الحزب فصارت مؤسساته مهيئة لتنكب مسؤولية تحقيق الوجدان القومي وتفعيل العمل النهضوي في صفوف الشعب. يصف جبران جريج تلك المرحلة بقوله: "نعم، خرج أنطون سعاده "الأستاذ" من هذه المحاكمة التي استمرت أربعة أيام منتصراً انتصارين كبيرين: الأول، ثبّت عامل الحياة في النهضة السورية القومية الاجتماعية وأطلقها لتتبوأ مركزها في الوجود. والثاني، ثبّت في نفوس أعضاء الحزب ثقتهم به. إنه الزعيم الذي يُسلم إليه المصير".[21]

نعود الآن إلى السؤالين اللذين طرحناهما في مقدمة هذا

القسم: "ما هي الصورة التي تكوّنت لدى سعاده بعد تلك التجارب والاختبارات التي كان بعضها قاسياً وفاشلاً؟ وما طبيعة الخطة التي قرر اعتمادها لترسيخ مفهموم الحزب بين القوميين أنفسهم أولاً، وبين المواطنين على نطاق واسع ثانياً؟"

لم يقلل سعاده قط من صعوبة المهمة التي انتدب نفسه لها، أي تحقيق نهضة قومية شاملة في سورية. فالمفاسد تنخر كافة طبقات المجتمع السوري، والقيادات المحلية الرجعية متحالفة مع القوى الخارجية تقف سداً منيعاً أمام العمل الإنقاذي المنظم. ومع ذلك، ظل إيمانه بأصالة شعبه حجر الزاوية في بنائه النهضوي. غير أن هذا الإيمان يجب أن يقوم على قواعد متينة: إنتقاء العناصر غير الفاسدة، سلطة الزعيم القدوة الذي أوقف نفسه للأمة، إعداد الصف الحزبي لمواجهة التحديات والصعوبات الخارجية والداخلية... وأخيراً إعلان المواجهة المباشرة إيذاناً بالإنتقال إلى الصراع المتوقع بين النهضة والانحطاط، بين المناقب والمفاسد.

هوامش الفصل الثامن

(1) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثالث. صفحة 180.

(2) المهتار، "إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية". صفحة 106.

(3) جبران جريج، "من الجعبة ـ الجزء الأول". صفحة 297.

(4) "الأعمال الكاملة"، الجزء التاسع. صفحة 2.

(5) خليل سعاده، "سورية والانتداب الفرنسي (1920ـ1923)"، المجلد الثاني. صفحة 121.

(6) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثاني. صفحة 1.

(7) عمر أبو زلام، جريدة "الزوابع" في 23 تشرين الثاني 1957 (نقلاً عن جبران جريج، "من الجعبة ـ الجزء الثالث". صفحة 628).

(8) "رسائل حب من أنطون سعاده إلى إدفيك جريديني"، صفحة 133.

(9) جريج، مرجع سابق. صفحة 289. وقبرصي، "عبدالله قبرصي يتذكر ـ الجزء الأول". صفحة 83.

(10) قبرصي، مرجع سابق. صفحة 86.

(11) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثامن. صفحة 22.

(12) جريج، مرجع سابق. صفحة 292.

(13) المرجع السابق، صفحة 375.

(14) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثالث. صفحة 186.

(15) "أنطون سعاده والحزب السوري القومي الاجتماعي في أوراق الأمير فريد شهاب"، صفحة 14.

(16) جريج، مرجع سابق. صفحة 396.

(17) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثالث. صفحة 186.

(18) المرجع السابق، صفحة 187.

(19) المرجع السابق، صفحة 175.

(20) المرجع السابق، الجزء السابع. صفحة 8.

(21) جريج، مرجع سابق. صفحة 143.

الفصل التاسع
منظومة قيم ومناقب

في 8 كانون الثاني سنة 1936 صدر الحكم بسجن سعاده مدة ستة أشهر، وفي 12 أيار من السنة ذاتها أفرج عنه بعد إتمام محكوميته. دخل سعاده السجن شخصاً مداناً بتأسيس حزب سري في مواجهة الانتداب، وخرج منه زعيماً حزبياً ووطنياً لتنطلق معه وبه النهضة القومية الاجتماعية التي أرادها أن تكون حركة الشعب العامة القادرة على أن تغيّر وجه تاريخ المنطقة. لكنه لم يتمتع بالحرية طويلاً، إذ أعيد اعتقاله في 30 حزيران حيث أمضى في المعتقل خمسة أشهر جديدة أخلي سبيله بعدها في 12 تشرين الثاني من دون محاكمة. ثم كان الاعتقال الثالث في 9 آذار سنة 1937 الأقصر بين الاعتقالات الثلاثة إذ أطلق سراحه في 15 أيار في إطار هدنة مؤقتة مع سلطات الإنتداب الفرنسي.

نلاحظ في رسائل سعاده إلى إدفيك جريديني، وهي مراسلات خاصة لم يكن القصد منها الإشهار آنذاك، أن زعيم الحزب السوري القومي وصل في النصف الثاني من سنة 1937 إلى مرحلة باتت تتطلب منه إلقاء نظرة تقييم على

السنوات الخمس المنصرمة، وفي الوقت نفسه إستشراف مستقبل الحركة القومية الاجتماعية بعد النضالات الشاقة التي عايشها الحزب خلال فترتي العمل السري والعلني. ذلك أن ثلاث سنوات من النشاط السري وسنتين من المواجهات العلنية المباشرة مع السلطات الاستعمارية الفرنسية أظهرت له كثيراً من الإشكالات الحزبية والاجتماعية، بعضها كان متوقعاً وبعضها الآخر شكل مفاجأة صادمة له.

خاض الحزب الإنتخابات النيابية في الكيان اللبناني سنة 1937 في ظل هدنة سياسية هشة مع السلطات الفرنسية وأتباعها من المسؤولين اللبنانيين. يقول في رسالة إلى إدفيك جريديني بتاريخ 2 تشرين الأول سنة 1937: "**وكان علينا أيضاً أن نواجه موقفاً حرجاً جداً في لبنان، فإن اقتراب موعد االانتخابات اللبنانية ونشاط حركة المرشحين واتصال عدد كبير منهم بنا، جعل الحكومة تقلق، وأخذ المفاوضون من قبلها يلحون علينا لتعيين موقفنا والمجاهرة بأننا في صفوف الحكومة، مهددين بالعودة إلى ملاحقة الحزب إذا نحن لم نعلن، قبل نهاية هذا الأسبوع، تأييدنا للحكومة**". ومع أنه أعلن تأييده لقائمة الحكومة بعد مفاوضات عسيرة، إلا أن ذلك كان مشروطاً بـ "**الاحتفاظ بحق مقاومة كل مشروع من مشاريع الحكومة نعتقد أنه ليس في مصلحة الوطن، فيظل موقف الحزب صريحاً وشريفاً على الرغم من الضغط الشديد عليه**".[1]

هذه الهدنة السياسية المؤقتة مكنت سعاده، للمرة الأولى منذ التأسيس، من أن يلتفت إلى الشأن الحزبي الداخلي على

الأصعدة الإدارية والتنظيمية والتثقيفية من دون أن يُهمل جوانب دعوة المواطنين إلى اعتناق الرسالة القومية الاجتماعية الجديدة، خصوصاً في ظل حملة شعواء تعرض لها الحزب وشاركت فيها قوى الرجعة السياسية والدينية، ومعها الحزب الشيوعي اللبناني الذي بادر إلى معاداة الحزب السوري القومي فور إعلان السلطات الاستعمارية الفرنسية كشفه والقبض على زعيمه وغالبية قياداته. ولعل جريدة "النهضة" التي أصدرها الحزب بتاريخ 14 تشرين الأول سنة 1937، مستفيداً من غطاء الهدنة المؤقتة، كانت أفضل وسيلة ناجحة لإبراز فكر الحزب وسياسته من جهة، ولمواجهة الفئات الرجعية المعادية من جهة أخرى.

ما يهمنا في مجال بحثنا هذا هو إلقاء الضوء على منهج سعاده في تعزيز الوضع الحزبي الداخلي وتنقيته بصورة مستمرة. صحيح أن عملية التأسيس بمعناها التنظيمي الإداري كانت قد اكتملت بعد الاعتقالات الأولى والثانية، وصحيح كذلك أن سلطات الزعامة ترسخت في ثلاثية "قسم الزعامة" و"خطاب الزعامة" و"بطولة الزعامة"... لكن الصحيح أيضاً أن معركة البناء النهضوي داخل الحزب وخارجه ظلت تتطلب جهداً جباراً من سعاده، خصوصاً أنه كان ينظر إلى الحزب على اعتبار أنه "**هيكل حيّ تام قابل النمو**"، كما جاء في رسالته إلى سلمى صايغ[2] في النصف الثاني من سنة 1936.

لاحظ سعاده خلال مرحلة الاعتقالات المتتابعة بين تشرين الثاني سنة 1935 و15 أيار سنة 1937 (أي حوالي السنة ونصف السنة من المواجهات مع سلطات الاستعمار الفرنسي)

بروز روحيتين متناقضتين في صفوف القوميين الاجتماعيين: الأولى، وهي الغالبية العظمى، قادرة على حمل أعباء النهضة ومستعدة للتضحية القصوى في سبيل فلاحها. والثانية ذات نفسية مترجرجة ظهرت عليها نقائص كثيرة من عهود الانحطاط والتخلف والفساد. وقد عبّر عبدالله قبرصي عن تلك الظروف بقوله: "لم تكن طاقتنا النضالية إلا في دور التكوين، فكدنا نسقط (...) فإذا به يجمعنا حوله ويلقي فينا العظة تلو العظة (...). القدوة الصالحة المثالية التي كانها المعلم لنا كانت أسخى معين نهلنا منه الصبر والاحتمال وتعلمنا الصمود والبطولة".[3]

وعلى رغم قلة عدد الذين أظهروا روحية مترددة ومتخاذلة، إلا أن سعاده شعر بصدمة كبيرة من جراء تراجع الذين توقع منهم خيراً، فقد "**كان ذلك روحية سيئة جداً من الذين وضع الزعيم ثقته فيهم...**".[4] ومع ذلك نراه في تصريحاته الصحافية بعد الإفراج عنه يؤكد: "**لاحظت بعد خروجي من السجن أن معنوية أعضاء الحزب أصبحت أضعافاً من القوة التي كانت قبلاً**".[5] وفي حديث آخر يقول: "**دخلت السجن شاعراً بأن الحزب السوري القومي يدخل في طور اختبار يبرهن عن حيويته وعن صلاحه لحمل مبادئه إلى قمة الفلاح. ودخلت المحكمة وأنا أشعر أن نضالاً عنيفاً بين الحقوق القومية والمصالح السياسية سيحتدم ضمنها. وشعرت بعد خروجي من السجن بأن النهضة السورية الجديدة قد أعطت البرهان القاطع على مؤهلاتها للإنتصار**".[6]

كان سعاده يتوقع بروز ظاهرة التخاذل والتردد بين عدد

محدود من أعضاء الحزب، فهو عرف مثل هذه الظواهر من خلال تجاربه الحزبية المبكرة في البرازيل قبل عودته إلى الوطن، ثم عايشها عن كثب بين دمشق وبيروت عندما كان يجس نبض النخب الاجتماعية والفكرية والسياسية تمهيداً للإنطلاق في مهمة بعث نهضة قومية اجتماعية في الوطن السوري. ولذلك لم يستغرب كثيراً سقوط عدد من أعضاء الحزب عند أول محك نضالي فعلي، "**والذين أيقنوا منهم بوخامة العاقبة والهلاك لم يأتوا، بل ذهبوا في وجهات أخرى يطلبون الخمول والسلامة**".[7]

وكما أن فشله في المغترب لم يُحبط آماله وتوقعاته، فإن قلة عدد المتراجعين والمترددين بعد الاعتقالات الأولى كانت كفيلة بترسيخ إيمانه بأن الأمة باتت مشرفة على طور جديد مميز بعد تأسيس الحزب. يقول في مقال نشرته جريدة "النهضة"[8] بمناسبة الذكرى الثانية لانكشاف أمر الحزب: "**في مثل هذا اليوم، منذ سنتين، خرجت إلى مجال الحياة العملية مبادئ الحزب السوري القومي معلنة، لأول مرة في التاريخ الحديث، إرادة أمة كانت بين الأمم التي سقطت منذ قرون وظن العالم أنها ماتت وأصبح وطنها قطائع للأمم الغريبة(...). منذ سنتين نهضت الأمة السورية من بين الأمم الميتة وابتدأت تاريخها الجديد(...). لم تعد الأمة بعد هذا اليوم تتسقط الفتات من موائد حريات الأمم الأجنبية، بل أصبحت تشترك مع الأمم الحرة بمجهودها في سبيل الحرية**".

غير أن هذه الرؤية الإيجابية إلى ما أنجزه الحزب في سنوات التأسيس الأولى لم تحجب عن سعاده تلك الظواهر

السلبية التي كانت قد تكشّفت أمامه في بيروت ودمشق خلال المرحلتين السرية والعلنية. فالواقعية كانت تتطلب منه الاعتراف بأن ما يقوم به هو "**تجربة**" ذات طابع خاص جداً على مستوى الأمة السورية: "**يقوم أنطون سعاده بأعظم تجربة تعرضت لها الأمة منذ قرون عديدة ألا وهي إيقاظ الوجدان القومي وتأسيس الأخلاق القومية ورفع مستوى الأمة إلى مرتبة الأمم الحية**".[9] وهذا المقال الذي يحمل عنوان "**هل يفلح سعاده؟**" يمكن اعتباره توصيفاً للواقع القومي وتوضيحاً لدور الحزب الذي "**يعني تغيير النظرة إلى الحياة وتغيير الأساس النفسي الخلقي القائم عليه بناء اجتماعي متفسخ متزعزع. وقد قدرنا الصعوبة العلنية التي سيتعرض لها سعاده في بلاد لم يعتد أهلها الشعور بالحاجة القومية، ولم يتربوا على حب الوطن والمجتمع، فهم يسيرون أبداً على خطة تكييف النفس والإرادة لمقتضيات الأثرة الفردية. كل شيء في هذا المجتمع مسخر لنفعية الفرد. والحيلة الفردية في تسخير الأوضاع والأشكال والأسس بعينها لخدمة المنفعة الفردية تعد، وفاقاً للنظرة القديمة، مهارة شخصية باهرة**".

ويجب علينا التمعن ملياً بكلمة "تجربة" الواردة في نص المقال ثلاث مرات، وتصف ما يقوم به سعاده من عمل إنشائي "**عظيم**" و"**خطير**". هل هي شبيهة بـ "تجارب" سابقة له في البرازيل، أم أنها وصلت إلى مرحلة متقدمة من النضج بحيث اندمجت في نهضة شاملة فـ "**جاء سعاده يقول بتغيير هذا الأساس (الفاسد) وإبدال هذه النظرية اللاقومية اللاوجدانية، وبتأسيس أخلاق قومية ثابتة توجد قاعدة ثابتة لتلاؤم المجتمع وتجانس أفكاره وأعماله وبإحلال النظرة**

القومية محل النظرة الفردية وبإقامة مبدأ التساند العام النزيه"؟ لا شك في أن رهان سعاده كان على أصالة قومية كامنة وصفها بأنها "**الأنفس الجديدة النزيهة التي هي أمل الأمة الوحيد**".

استمرت الهدنة بين الحزب السوري القومي والسلطات الاستعمارية الفرنسية قرابة ثلاثة عشر شهراً (15 أيار سنة 1937 ـ 11 حزيران سنة 1938) ما أتاح لسعاده فرصة ذهبية لترسيخ القواعد الفكرية والسياسية والنظامية الجديدة في صفوف القوميين الاجتماعيين، حيث ساهمت جريدة "النهضة" من جهة وجولات الزعيم الواسعة إلى مختلف المناطق من جهة أخرى في إظهار المزايا النهضوية الخاصة التي يحملها الحزب. لكن هذا لا يعني عدم بروز إشكالات داخلية، تبين أن معظمها ناتج عن أسباب سياسية. وأهمها في تلك الفترة مسألة صلاح لبكي[10] الذي كان سعاده قد عيّنه نائباً للزعيم في كانون الثاني سنة 1936 بعد الاعتقال الأول، ثم رئيساً للهيئة التنفيذية في الإعتقالات التالية، يُضاف إلى ذلك توليه منصب عميد الإذاعة وعضوية المكتب السياسي. غير أن موقف الحزب من الانتخابات النيابية سنة 1937 فجّر لدى لبكي طموحات نيابية مخالفة للقرار الحزبي، فتمت محاكمته وطرده. والملفت في تلك المرحلة المبكرة من عمر الحزب أن قرار الطرد لم يترك تداعيات مهمة على الصف الحزبي الذي كان قد وصل إلى مرحلة معقولة من الوعي والانضباط ما يؤهله لتقبل إجراءات سعاده المستندة إلى صلاحيات الزعامة المنصوص عنها في الدستور. وهذا ما عزّز من طمأنينة الزعيم إلى متانة الأسس النظامية عند القوميين الاجتماعيين.

لكن ما هي الاعتبارات التي جعلت سعاده راسخ القناعة بقدرة الشعب السوري على السير في طريق النهوض القومي الشامل؟ وكيف تعاملت تلك القناعة مع الثغرات الفكرية والسياسية والمناقبية التي تكشفت له في مسيرة العمل الحزبي قبل تأسيس الحزب السوري القومي وبعده؟

بعد تجربة التأسيس، ثم تجربة الاعتقالات والمحاكمات، بات لدى القوميين الاجتماعيين ثلاثية الفكر والنظام والممارسة. أولاً، العقيدة التي تقوم على مبادئ جلية هي في الوقت نفسه قواعد لانطلاق الفكر. وثانياً، دستور يؤطر العمل التنظيمي في اتجاه موحد لتحقيق غاية الحزب. وثالثاً، قيم مناقبية يتمتع بها إنسان جديد مستعد لحمل متطلبات الحياة الجديدة ساعياً على الدوام إلى مثال أعلى محسوس قوامه ترقية الحياة. ويرعى هذه العملية كلها، في حياة سعاده طبعاً، زعامة قدوة تؤمن المرجعية الضامنة لدقة الإلتزام بالعناصر الثلاثة الآنفة الذكر. ذلك أن الحفاظ على هذه القواعد الجوهرية ليس بالأمر الهين في مجتمع سوري بالكاد خرج من عصور الانحطاط المديدة. يقول سعاده في إحدى رسائله إلى إبراهيم طنوس بتاريخ 2 آب سنة 1940: "**وبما أن الحركة القومية تعمل في وسط سوري، لا ألماني أو إنكليزي أو ما شابه، فمن المنتظر أن يدخل ضمن الحركة مقدار من جراثيم النفسية العتيقة ومثالبها. وتنقية الحركة من هذه الجراثيم والمثالب، منذ البدء، يجب أن يكون مدعاة لتقوية العزائم لا لتثبيط الهمم، لأن أساس كل قوة مجموعية هو وحدة الروح ووحدة الصفوف، وبدون حصول هذه الوحدة تعظم الخشية من الفشل. ومداواة الفساد بستره عن العيون،**

بدلاً من استئصاله وتطهير الأوساط منه، طب قديم قد أهمله الإنسان لعدم فائدته".[11]

يشدّد سعاده مراراً وتكراراً، قبل تأسيس الحزب وبعده، على أن سورية لم تعرف نهضة قومية جذرية تثبّت شخصيتها وحقوقها قبل نشوء الحزب السوري القومي. وعلى هذا الأساس تنص غاية الحزب بوضوح تام على أن المؤسسات الحزبية إنما وُجدت بهدف "**بعث نهضة سورية قومية اجتماعية**"، وبالتالي لن يكون للحزب معنى أو دور مؤثر إذا لم يكن عاملاً لتحقيق تلك النهضة "**التي تعيد إلى الأمة السورية حيويتها وقوتها**". ويعتبر سعاده أن "**إقامة نظام جديد لحياة جديدة، إذن، هو الهدف العملي الأساسي، هو الغاية التي تطلبها حياة إنسانية مرتقية، هو الغرض الذي تريد تحقيقه نهضة أمة قوية فتية قد وُلدت ولادة جديدة بتعاليم الحياة الجديدة**".[12] والمقصود هنا أن الشرعية القومية لوجود الحزب، من حيث هو نظام الأشكال، مرتبطة جدلياً بمبادئ الحياة الجديدة التي يحملها إنسان مناقبي جديد. وهذا ما يفسر حرص سعاده الذي يكاد يبلغ حد التطرف على اختيار العناصر الشابة المتنورة المؤهلة لتنكب متطلبات تحقيق غاية الحزب والتعبير بالقدوة عن القيم المناقبية النهضوية الراقية.

العقلية المناقبية السامية التي شدد عليها سعاده طيلة حياته شكلت الضمانة الأكيدة لحماية العقيدة والنظام القوميين الاجتماعيين. كان يدرك منذ البداية أن الحزب نفسه سيكون ساحة صراع بين مفاهيم العمل السياسي التقليدي من جهة ومفهوم السياسة النهضوية من جهة أخرى. فقد "**قامت**

الأعمال السياسية كلها في هذا الوطن على أساس النظرة الشخصية الفردية أو العائلية حتى جاء الحزب السوري القومي وأعلن أساسه على المصلحة العامة ومبادئ العقيدة القومية".[13] أما النهضة القومية الاجتماعية، فإن الأمور التي تعتني بها "**ليست جزئيات بل كليات تتعلق بحياة الأمة في أساسها، بجوهر الحياة واتجاه الحياة الأسمى والأكمل والأفضل**".[14] ولذلك تبين أن قسماً من الذين انتموا إلى الحزب في سنواته الأولى خلطوا في نشاطهم بين مفاهيم السياسة التقليدية ومفهوم السياسة القومي. وهذا ما لاحظه جورج عبد المسيح بقوله عن هؤلاء: "وكانت السياسة والأهداف السياسية الدافع الأقوى لانخراطهم في الحزب".[15] فوقع الصدام بينهم وبين المؤسسة القومية، لكن صلاحيات الزعامة كانت الأداة الدستورية الجاهزة لمنعهم من حرف الحزب عن تطلعه نحو المطالب العليا السامية.

كان من الطبيعي أن يتشدد سعاده في تطبيق المعايير النظامية والأخلاقية التي جاءت بها النهضة ."**فالحزب ليس عدداً من الناس مجتمعين للمناداة بوحدة سورية فحسب، أو للعمل للنيابة كما يعمل المشتغلون في السياسة متآزرين ومتكتلين لمصلحة شخصية خصوصية**"[16]. إنه حزب صراع وتقدم، السياسة بالنسبة إليه هي فن خدمة أغراض الأمة. وهذا ما عجز عن استيعابه عدد من المنتمين إلى الحزب، سواء في مرحلته التأسيسية أو أثناء غياب الزعيم القسري في الأرجنتين، بل وحتى بعد استشهاده. بعض هؤلاء ترك الحزب مفضلاً الانخراط في أحزاب وجمعيات سياسية أخرى تمهد له الطريق إلى المناصب النيابية والحكومية. لكن بعضهم

الآخر سعى حثيثاً من داخل الأطر النظامية إلى تحويل مسار العمل الحزبي نحو غايات خصوصية فردية... فكان سعاده لهم بالمرصاد!

يقول في إحدى رسائله إلى إدفيك جريديني[17]: "**فإن التضعضع الواسع النطاق الذي حلّ بالحزب من جراء الإضطهادات المتوالية، وبُعدي عن الإدارة مدة سنة ونيف، سارت فيها الأمور كما أرغب وكما لا أرغب، أوجب القيام بعمل واسع وخطة طويلة لإعادة الحزب إلى تقاليده والقبض على أعنة الأمور وكبح جماح من استيقظت أنانياتهم لتطغى على العقيدة والنظام، والعودة إلى الأعمال الإنشائية والفكرية، ووضع قواعد المؤسسات العديدة التي أهمل أمرها كل هذا الوقت الطويل(...) وتطهير الحزب من المفسدين والجواسيس الذين إنتهزوا فرصة تغيبي في السجن وانهماكي بالأمور السياسية المستعجلة، فانبثوا في الدوائر غير المضبوطة وأطلقوا أيديهم في الأوراق والوثائق وابتدأوا ينشئون شِباكاً تجاهلت أمرها إلى أن انتهت المعركة السياسية ثم تفرغت لهم فأخذت في إقصائهم واحداً واحداً...**".

وكيفما نظرنا إلى ثلاثية الفكر والنظام والممارسة عند سعاده، نجد أنها كلٌ متكاملٌ لا يمكن تغليب أو تغييب عنصر منها على الآخر. "**إن النظام بلا قضية يخدمها لا يفيد شيئاً ذا قيمة في الحياة عموماً وفي الحياة القومية خصوصاً**".[18] فالنظام، من حيث هو أشكال دستورية أولاً وأشكال روحية ثانياً، مرتبط بمبادئ الحزب وغايته، ولن تكون له فائدة ترجى إلا في اندماجه الوجودي بالعمل لتحقيق

مبادئ الحزب وغايته. بل إن الابتعاد عن المبادئ والغاية سيؤدي حكماً إلى تضعضع النظام وعجزه عن توحيد مسار المنضويين تحته، نظراً إلى أن وحدة الاتجاه ناشئة عن وحدة الإيمان بالمبادئ وعن وحدة النضال لتحقيق الغاية. وهذه العوامل مجتمعة تشكل "روحية الحزب السوري القومي الاجتماعي" التي يرى سعاده أنها هي التي انتصرت "**على عوامل الزمن العتيق وروحيته العديمة الفضائل والمناقب**".[19]

إن أي نظام اجتماعي في العالم يحتاج إلى الإجماع الأخلاقي ـ المناقبي من قِبل الذين ينتمون إليه. فسعاده آمن دائماً بأن "**كل نظام يحتاج إلى الأخلاق. بل إن الأخلاق هي في صميم كل نظام يُمكن أن يُكتب له أن يبقى**".[20] ذلك أن كل قوانين العالم، مهما بالغ مشرّعوها في التشدد والاحتياط لسد الذرائع والثغرات، هي عُرضة للتلاعب والخرق إذا لم تنشأ في نفوس العاملين بها قيم مناقبية ضامنة. وتاريخ الحزب، في حياة سعاده، غني بالمواقف الحاسمة التي لم يكن الزعيم ليتردد في اتخاذها عندما يتأكد من أن ممارسات الأفراد يمكن أن تسيء إلى مناقبية الصف الحزبي. وكما عمد إلى حلّ الحزب الوليد سنة 1932 للتخلص من عنصرين فاسدين، عاد وهدد باللجوء إلى خطوات مماثلة أثناء وجوده في المنفى القسري. يقول في رسالة إلى وديع عبد المسيح بتاريخ 8 كانون الأول سنة 1940، تعليقاً على الممارسات الشاذة لمسؤولي جريدة "سورية الجديدة" في البرازيل: "**إني أفضل أن تزول الجريدة وأن يزول الحزب كله على أن يقوم أحدهما أو كلاهما على أساس الفوضى أو الامتيازات الشخصية غير المستحقة. فأنا قد جئت لأنشئ شيئاً جديداً لا**

لأسير حسب النظام أو الوضع القديم".[21] أما في العام 1947، بعد عودته إلى الوطن، فقد أجرى جراحة جذرية لتخليص جسم الحزب من المنحرفين سياسياً وفكرياً ومناقبياً، على الرغم من تاريخهم الحزبي العريق وعلو مكانتهم في سلم المسؤوليات المركزية.

كان سعاده، كما أظهرت الأزمة الحزبية الخطيرة سنة 1947، مستعداً للحوار الفكري مع أي كان داخل الحزب أو خارجه، على اعتبار أن المبادئ هي قواعد لانطلاق الفكر. فحرية الرأي والاعتقاد في الحزب "**مبدأ عام لا يمكن حرمان أحد منه إلا الذي يستخدمه لإفساد الأخلاق وإلقاء الشقاق وإثارة العداوات بين أبناء الأمة**".[22]. وبكلام آخر، هناك منظومة قيم ومناقب تحكم أنماط ممارسات القوميين الاجتماعيين ومواقفهم الفكرية والسياسية. وقد حددها سعاده في المحاضرة العاشرة قائلاً: "**العقلية الأخلاقية الجديدة التي نؤسس لحياتنا بمبادئنا هي من أثمن ما يقدمه الحزب السوري القومي الاجتماعي للأمة، لمقاصدها، ولأعمالها، ولاتجاهها**".[23]

هوامش الفصل التاسع

(1) "رسائل حب"، صفحة 24 ـ 25.

(2) "الأعمال الكاملة"، الجزء التاسع. صفحة 18.

(3) جبران جريج، "من الجعبة ـ الجزء الثاني". صفحة 57.

(4) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثالث. صفحة 190.

(5) المرجع السابق، الجزء الثاني. صفحة 22.

(6) المرجع السابق، صفحة 24.

(7) المرجع السابق، الجزء السابع. صفحة 9.

(8) المرجع السابق، الجزء الثاني. صفحة 276.

(9) المرجع السابق، صفحة 232.

(10) راجع التفاصيل الكاملة عند جبران جريج، "من الجعبة ـ الجزء الثالث". صفحة 271.

(11) "الأعمال الكاملة"، الجزء التاسع. صفحة 298.

(12) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 159.

(13) المرجع السابق، الجزء الثالث. صفحة 231.

(14) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 24.

(15) جورج عبد المسيح، "أيام قومية من عماطور إلى الإسكندرون". صفحة 31.

(16) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثامن. صفحة 24.

(17) "رسائل حب"، صفحة 117.

(18) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثاني. صفحة 66.

(19) المرجع السابق، الجزء الثالث. صفحة 188.

(20) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 135.

(21) المرجع السابق، الجزء التاسع. صفحة 350.

(22) جان دايه، "أنطون سعاده وحرية المعتقد". صفحة 63.

(23) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثامن. صفحة 135.

الفصل العاشر
المتحرك والثابت في ثلاثية التأسيس

سنتوقف في بحثنا هذا عند سنة 1938 لأنها، في رأينا، تشكل حدثاً مفصلياً في تاريخ سعاده والحزب السوري القومي الاجتماعي، تماماً مثلما شكلت سنة 1935 حدثاً مفصلياً في عملية التأسيس الناجز وفي تثبيت قيم الزعامة الدستورية والمناقبية. فعندما طرحت فكرة قيام الزعيم بجولة في المغتربات السورية بهدف نشر العقيدة بين المهاجرين وتنظيم صفوف الجاليات السورية والحصول على الدعم المادي والمعنوي الضروري لسد متطلبات النشاط القومي في الوطن، كان سعاده قد بات على قناعة بأن الحزب أصبح ثابت الوجود بعقيدته ومؤسساته وبنيته الأخلاقية النضالية.

ما كان للهدنة مع السلطات الاستعمارية الفرنسية وأتباعها السوريين أن تستمر طويلاً طالما أن الحزب السوري القومي مستمر في عمله لبث أنوار النهضة القومية في مسار مناقض لزمن سوري وصفه سعاده بأنه "**عصر جمود وذهول وتقليد واستكانة**".[1] فالقوى الرجعية الدينية والسياسية، المتحالفة مع النفوذ الأجنبي، اكتشفت سريعاً بعد الهدنة المؤقتة أن

المبادئ القومية الاجتماعية أخذت تتغلغل بفعالية في مختلف الطبقات والفئات الشعبية بحيث باتت تشكل خطراً مصيرياً على سلطاتها الزمنية والروحية.

إن الهدنة التي توصل إليها سعاده مع سلطات الإنتداب لم تكن تعني مساومة الحزب على مبادئه وسياسته القومية العامة. وعندما استدعت التطورات الداخلية في لبنان شن حملة إعلامية ماحقة على مراكز القوى الرجعية الدينية والسياسية، لم يتردد الزعيم في نشر سلسلتين من المقالات في جريدة "النهضة" شرّح في الأولى منهما الأحزاب الطائفية تحت عنوان "قضية الأحزاب الببغائية في المجلس"[2]، ثم كشف في الثانية العقم السياسي لدى رجال الدين في مقالات "الرد على خطاب البطريرك الماروني".[3] وإذا أضفنا إلى ذلك مواصلة الحملة على سياسات "الكتلة الوطنية" في دمشق، والاستمرار في إثارة مسألة لواء الإسكندرون، فسيتبين لنا أن السلطات الاستعمارية باتت مقتنعة في وقت ما من مطلع سنة 1938 بأن الحزب السوري القومي غير قابل للتدجين طالما أن زعيمه ممسك بدفة القيادة.

وفي ظل توقعات المواجهة المحتومة بين الطرفين، يجب علينا التوقف عند خطاب الأول من آذار سنة 1938[4] الذي يمكن اعتباره "خطاب التقييم" أو "خطاب الوداع" بعدما أدرك سعاده أن الهدنة على وشك الانهيار. ففي مطلع ذلك العام حددت محكمة بعبدا تاريخ 28 شباط سنة 1938 موعداً للنظر في حادثة بكفيا التي سقط فيها عدد من الجرحى بين القوميين ورجال الأمن. وأثارت هذه الخطوة قلق سعاده

الذي كتب في رسالة إلى إدفيك جريديني: "**سأتصل اليوم برئيس الوزارة لمعرفة القصد من فتح هذه الدعوى والنية القائمة وراء هذا العمل**".[5] والواقع أن الهدنة انهارت بالفعل بعد حوالي الثلاثة أشهر ما اضطره إلى المغادرة باتجاه أميركا اللاتينية. علماً بأن فكرة السفر كانت مطروحة على بساط البحث قبل أشهر من ذلك الخطاب، وقد أشار إليها في إحدى رسائله إلى إدفيك بتاريخ 31 تشرين الأول سنة 1937: "**فالمسألة التالية هي سفري إلى الأميركتين وسائر المهاجر السورية**"[6]، وأن هذا السفر "**قد يطول إلى سنة وسنتين**"،[7] والهدف منه "**تنفيذ القسم الأعظم من برنامجي العملي الذي لا يزال معظمه واقفاً**".[8]

أعد الزعيم هذا الخطاب المسهب بوصفه جردة حساب تاريخية للسنوات الست التي مضت من عمر الحزب. ذلك أن دائرة الاختبارات الحزبية كانت قد اكتملت تماماً: عمل سري دقيق، إنكشاف واعتقالات ومحاكمات، تجارب في الصلاحيات المعطاة للمسؤولين الحزبيين أثناء غياب الزعيم في السجن، ملاحقات وحملات إعلامية مسعورة، مواجهات عنيفة مع السلطات الأمنية، صدامات مع قوى الرجعة من كتائب وكتلة وطنية، هدنة مؤقتة، نشاط حزبي وسياسي وفكري علني، إصدار جريدة ناطقة باسم الحزب، إصدار أول نشرة إذاعية داخلية، حراك سياسي ديبلوماسي، تجربة الإنتخابات النيابية، مفاوضات مع قوى خارجية، إشكالات داخلية نظامية ومناقبية، محاسبة المنحرفين وإجراءات فصل وطرد. لذلك نحن نعتقد بأن خطاب الأول من آذار سنة 1938 شكل دليل عمل للحزب بقدر ما كان مناسبة لاستيعاب

الدروس الفكرية والدستورية والسياسية والمناقبية التي راكمتها الاختبارات والتجارب المريرة، كما يتكشف لنا أسلوب سعاده في التعاطي مع الأحداث ومعالجة المستجدات الداخلية والخارجية.

إن الحزب الذي وصفه سعاده بأنه "**هيكل حي تام قابل النمو**" إمتلك في حياة مؤسسه العناصر الأساسية القادرة على حمايته من كل محاولات التخريب من داخله أو من خارجه. وكنا ذكرنا أن ثلاثية العقيدة والدستور والمناقب تشكل، بالتلازم والتكامل، الضمانة الأكيدة لصيانة النهضة القومية الاجتماعية. ومع ذلك يمكننا القول إن بعض هذه العناصر يُعتبر من النمط المتحرك وبعضها الآخر من النمط الثابت. وعملية التوازن بين المتحول والثابت هي من ميزات الحزب السوري القومي الاجتماعي، وهي ما يؤهله في الوقت نفسه للتجدد الدائم متجاوزاً صعوبات الداخل والخارج على كافة الأصعدة.

كان الدستور في حياة سعاده العنصر الأكثر تحركاً من بين العناصر الثلاثة المشار إليها أعلاه (في سياق عملية الإكمال وفق أسس فلسفية وأخلاقية معينة)، ذلك أن الزعيم لم يكن يتعامل مع المسائل الدستورية إنطلاقاً من مفاهيم جامدة. فقد وُضعت المواد الأولية في 21 تشرين الثاني سنة 1934 وصُنفت في 20 كانون الثاني سنة 1937، أي أن العمل على الدستور استغرق أكثر من سنتين. ولعل مرسوم رتبة الأمانة[9] الذي صدر مطلع سنة 1937 كان من آخر المراسيم الدستورية التي أضافها الزعيم قبل إضطراره إلى مغادرة الوطن. وهو

يذكر في رسالة بتاريخ 21 كانون الثاني سنة 1938 "**يظهر أني قد أضطر لتأخير سفري إلى أواسط مارس، لأن الحزب يحتاج إلى تثبيت مؤسساته والأشخاص الذين يمكن الاعتماد عليهم في غيابي الطويل**".[10]. وكان قد شكل أول مجلس أعلى في الحزب سنة 1937 من بعض الأمناء الذين منحهم الرتبة قبل نشر مرسوم رتبة الأمانة وبعده. وهذا ما يؤكد أن النصوص الدستورية كانت متحركة من أجل تلبية متطلبات العمل الحزبي حسب الظروف والمستجدات.

والملاحظ في فترة الاعتقالات الأولى أن مسألة نشوء عائق مؤقت يمنع الزعيم من ممارسة صلاحياته الدستورية قد تم التعامل معها بصورة مؤقتة، أي بتعيين نائب للزعيم تقتصر مسؤولياته على متابعة العمل الإداري التنفيذي. ثم جاءت مادتان في الدستور المصنف في مطلع سنة 1937 فحددتا طريقة ملء فراغ الغياب الطبيعي للزعيم: "**المادة الحادية عشرة: يجتمع المجلس الأعلى بناء على دعوة رئيسه في مدة خمسة عشر يوماً من تاريخ حيلولة أي مانع طبيعي دائم دون ممارسة الزعيم سلطاته لانتخاب خلف له. المادة الثانية عشرة: يكون للرئيس المنتخب السلطة التنفيذية فقط وتحصر السلطة التشريعية من دستورية وغير دستورية بالمجلس الأعلى**".[11] وفي هذا دليل حاسم على أن سلطات الزعامة المطلقة اقتصرت على سعاده تحديداً. وقد أدت هذه الصلاحيات دوراً حيوياً في معالجة الانحرافات الداخلية، وصيانة البنية النظامية المناقبية للقوميين الاجتماعيين. "**وإذا درسنا جيداً تاريخ الحزب السوري القومي ودققنا في الاختبارات التي مرّت به وجدنا هذه السلطة غير المحدودة**

للزعيم الضمان الوحيد لسلامة هذا الحزب الذي يمثل نهضة الأمة السورية. ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكك الحزب، وإن بقيت العقيدة، من جراء المناورات التي قام بها أفراد جلبوا معهم إلى داخل الحزب أمراض النفسية الانحطاطية وحاولوا أن يحولوا الحزب إلى ميدان تتبارى فيه منافعهم الخصوصية وأهواؤهم".[12]

لكن الفقرة المذكورة أعلاه تستوجب أن نطرح سؤالاً حساساً: "إذا كانت السلطة غير المحدودة للزعيم الضمان الوحيد لسلامة الحزب أثناء وجوده، فما هي السلطة الضامنة للحزب في مرحلة غيابه مرّة ثانية، أو إذا لم يتمكن من ذلك لأي سبب؟"[13] يبدو لنا أن سعاده لم يتناول هذه الناحية، على الأقل دستورياً، إلا بعد عودته إلى الوطن سنة 1947. فقد أدرك وقتذاك أن الصراع العنيف المتشعب بين الحزب وقوى الرجعة المتحالفة مع الدول الأجنبية ومع المشروع الصهيوني بلغ مرحلة من الخطورة باتت تستدعي التفكير باحتمال الغياب الجسدي للزعيم. يُضاف إلى ذلك أن الذين منحهم ثقته الكاملة من قيادات الرعيل الأول أمثال نعمه ثابت ومأمون أياس وجورج عبد المسيح وأسد الأشقر وعبدالله قبرصي، ومن الجيل الجديد المثقف أمثال غسان تويني وفايز صايغ ويوسف الخال ولبيب زويا... كل هؤلاء الذين كانوا إما أمناء أو أعضاء في المجلس الأعلى ومجلس العمد أو من النخبة الفكرية في الحزب لم يتمكنوا من منع حصول إنحراف "الواقع اللبناني" الخطير أثناء غياب الزعيم، هذا إذا لم يكن بعضهم قد شارك في الترويج لسياسة اللبننة أو سكت عنها! ولذلك بات من الضروري وجود هيئة حزبية مستقلة

عن الجهازين التشريعي والتنفيذي في حال حدوث ما يمنع سعاده من ممارسة صلاحيات الزعامة المطلقة!

أشار هنري حاماتي[14] إلى وجود مرسوم قانون سنّه سعاده بعد عودته إلى الوطن سنة 1947 بإنشاء محكمة مركزية في الحزب. وقد عممته عمدة الثقافة والفنون الجميلة على القوميين قبل سنة 1949، في حين نشرته وزارة الأنباء اللبنانية بعد إعدام سعاده في كتاب "قضية الحزب القومي"[15]. وأعاد أسامة المهتار نشره في كتابه "إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية"[16] قبل أن يتم ضمه إلى مجموعة "الأعمال الكاملة ـ الجزء الثامن" نقلاً عن كتاب "قضية الحزب القومي". ولن نتناول مجدداً تفاصيل هذا المرسوم بعد أن أفاض في شرحه من جوانب مختلفة كل من حاماتي والمهتار. لكن يجب تسجيل نقطتين مهمتين تتعلقان بالثلاثية التي نتحدث عنها: الأولى، أن سعاده ظل حتى آخر لحظة من حياته يضيف ويعدل ويبلور ويطور المواد الدستورية. والثانية، أن هذا المرسوم أو أي نص دستوري مشابه له في الغاية لم يطبق في الحزب بعد استشهاد سعاده، ما يعني عدم وجود سلطة دستورية مستقلة عن السلطتين التشريعية والتنفيذية تناط بها مهمة مراقبة عمل هاتين السلطتين.

نستنتج من العرض السابق أن الدستور في حياة سعاده كان متحركاً منذ سنة 1934 وحتى سنة 1949 حسب مستلزمات العمل القومي. فماذا عن العقيدة من حيث كونها منظومة فكرية هي بالذات المبادئ الأساسية للحزب السوري القومي الاجتماعي؟

توجد ركيزتان أساسيتان تتحكمان بالعمل الفكري في الحزب: الأولى هي أن المبادئ هي قواعد إنطلاق الفكر. والثانية هي أن العقل هو الشرع الأعلى. وقد طبقهما سعاده على أكمل وجه ليس فقط في نشاطاته الفكرية من كتابات ومحاضرات وحوارات وشروحات، بل أيضاً من خلال الندوة الثقافية المركزية التي أنشأها في خريف سنة 1937 "**للأبحاث الثقافية ولنقل الفكر من السطحيات ومسائل الإدراك العادي إلى الأساسيات وقضايا العقل العلمي والفلسفي**".[17] ثم أعاد إحياءها وأصدر قانونها في 25 نيسان سنة 1948[18]. وتكمن أهمية الندوة الثقافية في أنها تشكل أحد الأطر الناظمة لـ"**إنطلاق الفكر**" من جهة، وفي أنها قد تكون قادرة على احتضان العقل الجمعي الذي يعتبر من المكونات الأساسية لـ "**الشرع الأعلى**".

يقول سعاده في رسالته إلى غسان تويني بتاريخ 26 أيار سنة 1946: "**إن عقيدة الحزب السوري القومي الاجتماعي ونظرياته قد حرّكت العقول ونشطت الأفكار، ليس فقط في الذين دخلوا في صفوفه، بل في جميع المشتغلين بالسياسة والاقتصاد والثقافة والأدب. ولست أريد أن أقول إن كل نشاط فكري مصدره الحزب، بل أريد إظهار ما كان لعقيدة الحزب ونظرياته من شأن في دفع قوى الأمة نحو هذا "النشاط الثقافي المتفجر"، وهو شأن اعترف به رجال ومؤسسات لها مكانتها**".[19] ففي هذا النص ما يؤكد أن النهضة القومية الاجتماعية هي حركة فكرية عامة لا تقتصر على المنتمين إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي فحسب بل هي مفتوحة للشعب السوري ولكل الشعوب العربية. ولذلك يمكن اعتماد

منهجها العقلي بغض النظر عمّا يمكن أن يحدث لأية مؤسسات حزبية، كما ألمح إلى ذلك سعاده نفسه أثناء شرحه لمسألة سلطة الزعيم قائلاً: "**...ولولا هذه السلطة لكان الأرجح أن يتفكك الحزب، وإن بقيت العقيدة**".[20]

وكما أنه يوجد احتمال بأن يتفكك الحزب وتبقى العقيدة، كذلك هناك احتمال بأن تتفكك العقيدة مؤقتاً ويبقى الحزب! وتجربة "الواقع اللبناني" دليل صارخ على قدرة بعض القيادات على تمرير الانحراف العقدي والسياسي في ظل قبول حزبي "**بحكم النظام فقط، لأنني وجدت أن مجموع القوميين الاجتماعيين لم يتقيدوا بفكر واحد من هذه الأفكار. ولكن قبول هذا الخروج العقدي، وإن يكن في الظاهر فقط، يكون مسألة من المسائل الخطيرة**".[21] ويعود سعاده مجدداً في رسالته إلى القوميين الاجتماعيين بتاريخ 10 كانون الأول سنة 1947 إلى فكرة احتمال "زوال" العقيدة بقوله: "**كل عقيدة عظيمة تضع على أتباعها المهمة الأساسية الطبيعية الأولى التي هي: إنتصار حقيقتها وتحقيق غايتها. كل ما دون ذلك باطل. وكل عقيدة يصيبها الإخفاق في هذه المهمة تزول ويتبدد أتباعها**".[22]

والعقيدة القومية الاجتماعية ينطبق عليها كلام سعاده السالف الذكر، فهي "**عظيمة**" ولذلك تضع على معتنقيها مهمة "**إنتصار حقيقتها وتحقيق غايتها**". لكنها ليست شيئاً مطلقاً أو مجرداً، إنما هي "**مكتنزات الفكر والقوى، هي قواعد إنطلاق الفكر، وليست المبادئ إلا مراكز إنطلاق في اتجاه واضح**".[23] وهذا يعني عدم إغلاق باب الاجتهادات

الفكرية المؤدية إلى تحقيق الغاية، "**فالعقيدة آخذة في الاختمار، والفكر قد إبتدأ يتبلور**".[24] لكن الاجتهاد، في الفكر كما في النظام، يحتاج إلى الضمانة الأخلاقية المناقبية التي تعتبر المفصل الأساسي لثلاثية التأسيس الناجز. وإذا كان الاجتهاد في النظام والفكر يمكن أن يكون متحركاً وفق الاعتبارات التي مرّت معنا، فأن العقلية الأخلاقية المناقبية هي الثابت المطلق لدى القوميين الاجتماعيين، والتي إذا تعرضت إلى أي ميعان أو خلل ينتفي أن تكون هناك نهضة قومية حقيقة... ذلك أن غاية الحزب تنطوي منذ البداية على "**تأسيس عقلية أخلاقية جديدة ووضع أساس مناقبي جديد**".

أراد سعاده للحزب السوري القومي الاجتماعي أن يكون حاضناً ومخبراً لبناء إنسان سوري مناقبي جديد مؤهل لحمل تبعات حركة قومية تسعى إلى مثال أعلى. هذه الحركة "**كانت تحتاج إلى إنشاء وتأسيس كل أمر من أمورها، إذ لم يكن قبلها أي شئ إداري أو اجتماعي أو سياسي أو ثقافي أو دستوري أو مناقبي يصح اعتماده لنوع هذه الحركة الجديدة**".[25] وقد تابعنا في بحثنا حتى الآن مسيرة التأسيس الشاقة التي أوصلت إلى ثلاثية متلازمة ومتكاملة هي العقيدة والدستور والمناقب. وتبين لنا أن معركة الحزب الدائمة، داخلياً وخارجياً، كانت تدور "**بين الأجمل والأقبح، وبين الأسمى والأسفل، وبين الأنبل والأرذل**".[26] أما الإنجاز النهائي الذي يناضل من أجله القوميون الاجتماعيون فهو "**إنتصار الأفضل والأنبل والأعز على الأسوأ والأرذل والأذل**".[27]

ولا يعني هذا الكلام قط أن معارك الحزب اقتصرت على الساحة الروحية (الأخلاق والمناقب)، ذلك أن المعارك المادية في ساحات القتال تحتاج حكماً إلى القوة الروحية التي وصفها سعاده بأنها "**البطولة (المؤمنة) المؤيدة بصحة العقيدة**".[28] لكن الخوف الأكبر كان دائماً الميعان المناقبي الذي يهدد العقيدة بقدر ما يهدد النظام نفسه. وطالما أن القوميين الاجتماعيين محصنون بالقيم الأخلاقية والمناقبية فلا خوف على العقيدة ولا خوف على النظام. فالحفاظ على التعامل الأخلاقي في الحزب وخارجه هو الذي يصون مبدأ التعاقد (الأساس الحقوقي للعقيدة والنظام)، وهو الذي ينقل العمل القومي الحزبي من مرحلة الشك والفوضى إلى مرحلة اليقين والوضوح.

هوامش الفصل العاشر

(1) الأعمال الكاملة، الجزء السادس. صفحة 323.

(2) المرجع السابق، الجزء الثاني. صفحة 284.

(3) المرجع السابق، صفحة 339.

(4) المرجع السابق، الجزء الثالث. صفحة 175.

(5) "رسائل حب من أنطون سعاده إلى إدفيك جريديني"، صفحة 129.

(6) المرجع السابق، صفحة 39.

(7) المرجع السابق، صفحة 83.

(8) المرجع السابق، صفحة 53.

(9) عبدالله قبرصي، "عبدالله قبرصي يتذكر ـ الجزء الأول". صفحة 165.

(10) "رسائل حب من أنطون سعاده إلى إدفيك جريديني"، صفحة 113.

(11) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثاني. صفحة 80.

(12) الأعمال الكاملة، الجزء الرابع. صفحة 163.

(13) أسامة عجاج المهتار، "إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية". صفحة 92.

(14) حاماتي، "أفكار ـ الجزء الثالث: تجربة ناقصة". صفحة 66.

(15) "قضية الحزب القومي"، صفحة 242.

(16) المهتار، مرجع سابق. صفحة 182.

(17) "الأعمال الكاملة"، الجزء الثالث. صفحة 259.

(18) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 209.

(19) المرجع السابق، الجزء الحادي عشر. صفحة 100.

(20) المرجع السابق، الجزء الرابع. صفحة 163.

(21) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 5.

(22) المرجع السابق، الجزء السابع. صفحة 183.

(23) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 4.

(24) المرجع السابق، الجزء السادس. صفحة 342.

(25) المرجع السابق، صفحة 338.

(26) المرجع السابق، صفحة 335.

(27) المرجع السابق، صفحة 341.

(28) المرجع السابق، الجزء السابع. صفحة 182.

خلاصة

إن سبب تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي هو تلك النظرة السامية إلى الحياة والكون والفن. كان هذا التوجه واضحاً عند سعاده منذ البداية عندما حدد في محاضرة "مبادئ أساسية في التربية القومية" التي ألقاها في جمعية "العروة الوثقى" في بيروت أواخر سنة 1932 أن "**أغراض الأمم السامية هي مطالبها العليا**".[1] ثم عاد وبلور الفكرة في كتابه "الصراع الفكري في الأدب السوري" بالعبارة التالية: "**القاعدة الذهبية، التي لا يصلح غيرها للنهوض بالحياة والأدب، هي هذه القاعدة: طلب الحقيقة الأساسية الكبرى لحياة أجود في عالم أجمل وقيم أعلى**".[2] والسبيل الأساسي لتعميم هذه النظرة هو أن تتضمنها غاية الحزب، فتصبح النظرة والغاية كلاً متكاملاً يشكل قاعدة قرار الانتماء إلى الحزب وفق مبدأ التعاقد الإفرادي مع الزعيم.

يأتي الانتماء إلى الحزب تتويجاً لعملية وتمهيداً لعملية أخرى مكملة لسابقتها. العملية الأولى تبدأ باعتناق المبادئ القومية الاجتماعية والاستعداد لنشرها في المجتمع واتخاذها

شعاراً وجودياً مستمراً، وهو أمر يتحقق من حيث المبدأ داخل أطر المؤسسات الحزبية التي هي دولة الأمة السورية المصغرة. والانتماء بحد ذاته خطوة تعاقدية إفرادية بين المقبل على الدعوة والزعيم (كما هو محدد في مقدمة الدستور) هدفها تحقيق الغاية والنظرة الإنسانية العليا التي أوجزها سعاده في قيم الحق والخير والجمال. أما العملية الثانية فهي السعي، من ضمن الجماعة وفي السياق القومي العام، من أجل أن تتحول الوحدات الحزبية في حيزها الجغرافي إلى صورة للمجتمع الجديد الذي يبنيه القوميون في متحداتهم الصغرى، وأن تنمو هذه المتحدات وتنشط من ضمن خطة حزبية هادفة إلى تحقيق غاية الحزب. وممارسة الانتماء في المرحلة الثانية هي مختبر يضع فيه الأعضاء إيمانهم على محك التجارب الاجتماعية المعاشة. كما وأنها صقل مستمر للوعي القومي الاجتماعي القائم على نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن.

من هنا يمكننا النظر إلى الثلاثية الحزبية المؤلفة من العقيدة والدستور والمناقب، والتي درسنا نشوءها وتطورها في الفصول السابقة على أنها شرط ضروري لكن غير كاف لتحقيق غاية الحزب. إنها شرط ضروري لأنها الضمانة لاستمرار الحزب ووحدة اتجاهه وسلامة مؤسساته ومتانة بنيانه المناقبي. ولكنها شرط غير كاف لأنها، من دون الخطط الاختصاصية والموارد البشرية والمادية الموظفة فيها، لا يمكن لوحدها أن تحقق غاية الحزب.

لم يكن الهدف تأسيس حزب عادي على غرار ما نشأ في

سورية والعالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين، وإنما كان إيجاد "**حياة تعمل وتنشئ وترتقي وتحقق وتخلق**".[3] ولذلك فإن المقبلين على الدعوة، المؤمنين بالنظرة الجديدة والغاية السامية، كانوا يختارون بملء الحرية التعاقد الوجداني على أساس الإلتزام المطلق بالثلاثية الحزبية المتلازمة والمتكاملة.

وبهذا المعنى، لا تكون العضوية القومية الاجتماعية مجرد عمل تنظيمي إداري سياسي، ولا تكون مهمة الحزب الاكتفاء بتحقيق انجازات سياسية آنية على حساب الغاية الأساسية للعقيدة. فالنهضة هي "**حركة فكرية ذات نظرة واضحة إلى الحياة**"، والعمل العظيم الذي يقع على عاتق القوميين تحقيقه "**هو إيجاد مجتمع جديد نيّر في هذه البلاد وإيصال هذه النظرة إلى كل مكان**". ذلك "**أن قضيتنا فيها كل الخير وكل الحق وكل الجمال وكل الحقيقة وكل العدل للمجتمع الإنساني**".[4]

وقد رد سعاده على الذين اتهموه بعدم المرونة في الشأن السياسي بعبارات لا تحتمل التأويل: "**نحن لسنا بهذه الصعوبة وهذه الصلابة في السياسة التي يتصورها الواهمون الجاهلون، ولكننا لسنا بهذه السهولة في معترك العقائد، معترك الأهداف والمبادئ والغايات والأسس الأخلاقية التي لا تنهض أمة إلا عليها. نحن نتساهل في السياسة ولكنهم لا يقدرون أن يحولوا عقائدنا إلى سياسة، وسياستهم إلى عقائدنا. السياسة عندنا فن يخدم غاية. أما الغاية فقد قررناها، وقد حاربنا في سبيلها، فهي موجودة ونحن فيها سياسيون،**

لا مراوغون ولا متلاعبون ولا محتالون".[5]

إن أخطر ما كان يخشاه سعاده هو تعرض القوميين الاجتماعيين لـ "**الميعان العقائدي والأخلاقي**" و"**الميعان المبدئي والأخلاقي المتفشي في شعبنا**"، كما جاء في رسالته إلى غسان تويني بتاريخ 26 أيار سنة 1946[6]. وينشأ "الميعان" إجمالاً عندما تتزعزع النظرة القومية الاجتماعية السامية وتضيع بوصلة الغاية التي هي "**جوهر الحياة واتجاه الحياة الأسمى والأكمل والأفضل**".[7] وفي هذه الحالة، لا ضمانة لأحد سوى في المناقب: "**نحن جماعة أخلاق، لأنه لا يمكن أن يقوم عمل عام، أو فردي، ويواجه الصعوبات إلا إذا كان له أساس من الأخلاق**".[8]

إذا كانت القيم المناقبية هي ضمانة العضوية الملتزمة بالعقيدة وبالنظام، فإن النظرة والغاية هما أساس الانتماء إلى الحزب، وهما اللتان توفران المقياس الوحيد الصالح لمعرفة ما إذا كانت القيادات الحزبية المتعاقبة منذ استشهاد سعاده قد قامت بواجبها القومي تجاه العقيدة التي "**تضع على أتباعها المهمة الأساسية الطبيعية الأولى التي هي: إنتصار حقيقتها وتحقيق غايتها**". إن وجود ثلاث مؤسسات تحمل اسم الحزب السوري القومي الاجتماعي، والتي أشرنا إليها في المقدمة، دليل على عدم نجاح القيادات في "**المهمة الأساسية الطبيعية الأولى**". أما التغيير الجذري المطلوب لإحداث نقلة مصيرية في مسار النهضة القومية الاجتماعية، فقد أوضحه لنا الزعيم في محاضرته الأولى: "**إذا وصلنا إلى الاقتناع بأننا أصبحنا ننظر إلى الحياة وإلى الكون الماثل أمامنا**

وإلى الخلق الذي ينبثق منا بالنسبة إلى الإمكانيات كلها في العالم ونستعرض مظاهرها ونفهم كل ذلك فهماً داخلياً، بنظر أصلي ينبثق منا نحن بالنظر لحقيقتنا، حينئذ يمكننا القول إن لنا نهضة، إن لنا أهدافاً".[9]

هوامش الخلاصة

(1) "الأعمال الكاملة"، الجزء الأول. صفحة 382.

(2) المرجع السابق، الجزء السادس. صفحة 361.

(3) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 22.

(4) المرجع السابق، صفحة 2.

(5) المرجع السابق، صفحة 284.

(6) المرجع السابق، الجزء الحادي عشر. صفحة 99.

(7) المرجع السابق، الجزء الثامن. صفحة 24.

(8) المرجع السابق، صفحة 431.

(9) المرجع السابق، صفحة 3.

المراجع

* "الأعمال الكاملة"، أنطون سعاده. مؤسسة سعاده للثقافة ـ بيروت 2001.
* "رسائل حب من أنطون سعاده إلى إدفيك جريديني"، بيروت 1997.
* "أنطون سعاده: الجزء الأول سنو الشباب"، سليم مجاعص. دار كتب ـ بيروت 2011.
* "سعاده في المهجر: الجزء الأول البرازيل 1921 ـ 1930"، نواف حردان. دار فكر للأبحاث والنشر ـ بيروت 1989.
* "أحزاب اللبنانيين وجمعياتهم في الربع الأول من القرن العشرين"، جورج أديب كرم. دار النهار للنشر ـ بيروت 2003.
* "العلامة الدكتور خليل سعاده: سيرته وأعماله"، علي حمية. الفرات للنشر والتوزيع ـ بيروت 2007.
* "أعيان الشام وإعاقة العلمانية في سورية"، صقر أبو فخر. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 2013.
* "محاكمة أنطون سعاده ـ وثائق التحقيق الرسمي"، جان دايه. فجر النهضة ـ بيروت 2002.
* "أنطون سعاده وحرية المعتقد"، جان دايه. فجر النهضة ـ

بيروت 2011.

* "الدكتور خليل سعاده: نتاجه الفكري وجهاده السياسي"، جان دايه. فجر النهضة ـ بيروت 1998.
* "يوميات ـ الجزء الأول"، جورج عبد المسيح. دار المعرفة للطباعة والتوزيع ـ بيروت. من دون تاريخ.
* "أيام قومية من عماطور إلى الإسكندرون"، جورج عبد المسيح. الركن للطباعة والنشر ـ بيروت 2004.
* "أنطون سعاده منذ الولادة حتى التأسيس"، جبران جريج. مؤسسة فكر للأبحاث والنشر ـ بيروت 1982.
* "مع أنطون سعاده ـ الجزء الأول"، جبران جريج. بيروت 1971.
* "من الجعبة ـ الجزء الأول"، جبران جريج. بيروت 1985. لا توجد دار للنشر.
* "من الجعبة ـ الجزء الثاني"، جبران جريج. بيروت 1986. لا توجد دار للنشر.
* "من الجعبة ـ الجزء الثالث"، جبران جريج. بيروت 1988. لا توجد دار للنشر.
* "أنطون سعاده والحزب السوري القومي الاجتماعي في أوراق الأمير فريد شهاب"، أحمد أصفهاني. دار كتب ـ بيروت 2006.
* "سورية من الحرب والمجاعة إلى مؤتمر الصلح ـ المجلد الأول"، خليل سعاده. إعداد وتقديم سليم مجاعص وبدر الحاج. مؤسسة سعاده للثقافة ـ بيروت 2014.
* "سورية والانتداب الفرنسي (1920 ـ 1923) ـ المجلد الثاني"، خليل سعاده. إعداد وتقديم سليم مجاعص وبدر الحاج.

مؤسسة سعاده للثقافة ـ بيروت 2014.

* "عبدالله قبرصي يتذكر ـ الجزء الأول"، عبدالله قبرصي. مؤسسة فكر للأبحاث والنشر ـ بيروت 1982.
* "بين المشيخة والعلمنة"، نديم جواد عدره. دار كتب للنشر ـ بيروت 2005.
* "إدارة الاستراتيجية في المنظمة العقائدية"، أسامة عجاج المهتار. مؤسسة سعاده للثقافة ـ بيروت 2009.
* "أفكار ـ الجزء الثالث: تجربة ناقصة"، هنري حاماتي. بيروت 1999.
* "قضية الحزب القومي"، وزارة الأنباء اللبنانية. بيروت 1949.
* " نقاط فوق بعض الحروف: ماذا بقي من أنطون سعاده في الحزب السوري القومي الاجتماعي؟" (1)، دريد أبو شقرا. دار الكنوز الفكرية ـ بيروت 1997.
* " نقاط فوق بعض الحروف: ماذا بقي من أنطون سعاده في الحزب السوري القومي الاجتماعي؟" (2)، دريد أبو شقرا. دار الكنوز الفكرية ـ بيروت 1998.
* "هل أخطأ سعاده: نقاط فوق بعض الحروف" (3)، دريد أبو شقرا. بيروت 2015.
* "القومية السورية: دراسة في الفكر السياسي عند أنطون سعاده"، عادل بشارة. دار نلسن ـ بيروت 2015.
* "الكتاب القومي"، مجموعة من الكتاب والباحثين. بيروت 2015.

* "Antoun Saadeh: A Biography. Volume 2", Salim Mujais. Kutub Ltd - Beirut 2009.

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

أبو جمرة، راجي 54

أبو سمرا، وديع 35

أبو كامل، كامل 52

أسعد، فكتور 89

الأشقر، أسد 134

أياس، مأمون 134

ـ ب ـ

بشارة ، أسعد 36

ـ ت ـ

تويني، غسان 65، 75، 134، 136، 146

ـ ث ـ

ثابت، نعمة 83، 134

– ج –
جريج، جبران 16، 25، 39، 85، 87، 99، 104، 108
جريديني، إدفيك 102، 113، 114، 123، 131
جمال باشا 17

– ح –
حاماتي، هنري 135
حردان، نواف 18، 39، 40، 52، 54، 55
الحلبي، رفيق 86، 92

– خ –
الخال، يوسف 134

– د –
الداعوق، عمر 22

– ز –
زويا، لبيب 134

– س –
سعاده، إدوار 21
سعاده، آرثر 21
سعاده، أرنست 21

سعاده، تشارلي 21
سعاده، خليل 15، 17، 18، 21، 22، 25، 30، 36، 37، 38، 39، 40، 43، 47، 48، 61، 100
سعاده، سليم 21
سعاده، غريس 21
سعد، شارل 92

ـ ش ـ
شميل، شبلي 17

ـ ص ـ
صايغ، سلمى 115
صايغ، فايز 134
صوايا، جميل 87

ـ ط ـ
طراد، نجيب نسيم 36
طنوس، إبراهيم 120

ـ ع ـ
عبد الحميد الثاني، السلطان 18، 19
عبد المسيح، جورج 78، 87، 90، 122، 134
عبد المسيح، وديع 124
عزام، سليمان 52، 54، 100

ـ غ ـ
غانم، شكري 36

ـ ف ـ
فارغاس، غيتوليا 28
فرنجيه، حميد 16، 17، 25، 31، 55

ـ ق ـ
قبرصي، عبدالله 78، 89، 91، 92، 103، 116، 134
قبلان، حسن 68
قنيزح، إلياس جرجي 104

ـ ك ـ
كرد علي، محمد 74

ـ ل ـ
لبكي، صلاح 119

ـ م ـ
مجاعص، سليم 16، 17، 25، 38، 39، 73
محمد رشاد، السلطان 18
معلوف، فخري 65
المهتار، أسامة عجاج 98، 135

ـ ن ـ
نصير، سليمان نصار 21

ـ هـ ـ
الهاشم، عزيز 91

ـ ي ـ
يافث، نعمة 36